دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الخدمة

«ولكني أنا بينكم كالذي يخدم» (لوقا ٢٢: ٢٨).

الأب متى المسكين

المحتويات

مقدمة عامة ٥

الجزء الأول

١- مقياس الخدمة ١٣
٢- مؤهلات الخادم ١٥
٣- جوهر الخدمة ٢٤
الطاقات المتعلقة بجوهر الخدمة ٢٥
٤- المخدومون ٣٣
أمراض المخدومين ٣٤

الجزء الثاني

الفصل الأول: في بناء الخادم ٤٥
الفصل الثاني: في عثرات الخادم ٦٢
الفصل الثالث: الضرائب المستحقة على الخادم ٨٤
الفصل الرابع: أفراح الخادم ٩٠

الجزء الثالث

الباب الأول: نحو خدمة كنسية أرثوذكسية:

الفصل الأول: التربية الدينية ١٠٣
الفصل الثاني: الخدمة وروح المنهج الأرثوذكسي. ١١١

الباب الثاني: في بناء الخادم:

الفصل الأول: إعداد الخادم كنسياً. ١٢٥
الفصل الثاني: بناء الخادم نفسياً (١) ١٣٤

الفصل الثالث: بناء الخادم نفسياً (٢) ١٤٣
الفصل الرابع: البناء الروحي للخادم (١) ١٥٢
الفصل الخامس: البناء الروحي للخادم (٢)
– العمل النسكي. ١٥٥
الفصل السادس: البناء الروحي للخادم (٣)
– بناء عقيدة الخادم. ١٦٤
الفصل السابع: البناء الروحي للخادم (٤)
– البناء الأخلاقي للخادم. ١٧٦
الفصل الثامن: البناء الروحي للخادم (٥)
– الاختبار الروحي في حياة الخادم. ١٨٥

مُقَدِّمَة

يتحتم علينا ونحن نقدم هذه المقالات أن ننبه القارئ إلى حقيقة غاية في الأهمية وهي الفرق الكبير بين التعليم بمفهومه الحديث الآن وبين الخدمة في مفهومها المسيحي الأصيل. أما التعليم حتى ولو كان في الأمور الروحية فهو يختص بتهذيب الفكر ليتشبع بأسلوب الإنجيل وتدريب الملكات الإبداعية كالألحان والصلاة، وتكوين الخبرات والمهارات كالكلام والوعظ وتكديس المعلومات سواء في التاريخ أو الطقس أو اللاهوت، وهذا بالتالي ينتهي كله إلى الإعلاء بالشخصية على أساس الكفاءة الذاتية والتفوق على الآخرين في الأمور الروحية.

وأما الخدمة فهي تختص بوعظ النفس وتبكيتها وضبط الغرائز والسيادة عليها لإطلاق الروح من عبودية الأهواء والنـــزوات والدخول في حالة توبة نشطة دائمة لتقبُّل نعمة الله. وهذا بالتالي ينتهي إلى تنازل عن الذات وتسليم النفس لله وبلوغ حالة من الصدق في السلوك مع الناس والأمانة في العبادة لله مع خشوع وتقوى.

إذن، فالتعليم بمفهومه وواقعه الآن يتمركز حول الذات، وهو - بدون الخدمة - ينفخ صاحبه حسب اصطلاح الإنجيل[1]، أما الخدمة

---

(١) «العلم ينفخ ولكن المحبة تبني» (١كو٨: ١).

فتتمركز حول الروح وهي تملأها خشوعاً وحباً واتضاعاً.

لذلك، أصبح لزاماً علينا أن نوجه الأنظار إلى ضرورة الخدمة الروحية وإلاَّ أصبح التعليم وبالاً على النفس.

هناك أيضاً فرق كبير بين معلم الدين وخادم الروح. الأول يلقِّن المعرفة؛ والثاني يبني النفس، الأول يستقي المعرفة من الكتاب ويقدمها للتلميذ على ورقة؛ والثاني من ملء روحه يفيض، من إيمانه وحبه وبذله واتضاعه يقدم الخبرة والمثال الحي، فهو يعطي نفسه ويقدم حياته. الأول ناقل كلمة يقولها كما سمعها وتعلَّمها؛ والثاني يلد الكلمة من بطنه فتتفجر من أعماقه كما يتفجر الينبوع من باطن الأرض. الأول يُحضِّر الدرس ليقود الناس إلى فكره؛ والثاني يتمخض ليلد بالروح أولاداً للمسيح.

وهناك أيضاً فرق بين تلميذ اعتاد أن يجلس إلى معلمه يسمع دروساً في الدين بوعد إذا حفظه ينال جائزة أو مديحاً؛ وبين ابن في الطاعة سلَّم روحه بيد مرشده، ينتخس قلبه بوعظه، فيسعى إليه نشيطاً كل يوم يسأل: ماذا ينبغي أن يعمل جديداً ليتخلص من خطاياه وينمو بالروح؟

الأول يزداد كل يوم علماً ويجتهد بالأكثر ليكون أفضل من غيره ويفتخر على كل من هم دونه؛ والثاني يزداد كل يوم نعمة واتضاعاً ويجتهد بالأكثر ليكون غير محسوب عند أحد ولا عند نفسه!!

إذاً، فخادم الروح ليس هو مجرد معلم دروس بل بالدرجة الأولى مُخلِّص نفوس. والخدمة همُّها الأول وشُغْلها الشاغل توبة الشبان

والشابات وسلوكهم سلوك الفضيلة ومخافة الله.

درس المحبة لا يمكن أن يكون مجرد كلمات مُحضَّرة وأمثلة محبوكة، ولكنه عطاء نفس حقيقي حيث يهب الخادم كل حب المسيح وكل شوقه مع كل ما يملك من خبرات إليهم، فيدخل السامعون مجال المحبة الإلهية محسوساً في حب خادمهم ويذوقونها بالروح فتنتقل إليهم المحبة تماماً كما يُسلِّم الأب ميراثه لبنيه!!

درس الأمانة والإخلاص والصدق ليس بكلمات أو آيات أو ترنيمات بل هو قيادة صعبة شاقة مخلصة حيث يقود الخادم أولاده واحداً واحداً في هذا الطريق الحرج الباهظ التكاليف يشجعهم ويحفزهم ويسندهم ويحمل معهم نيره المرَّ ويتقاسم معهم الخسارات والإهانات !!

درس الاتضاع ليس بالإقناع العقلي يكون، ولا هو بتقديم الأمثلة للحماس وللغيرة بل جهاد طويل ونـــزاع مرٌّ ضد الذات، وشاق كل المشقة لا يمكن لإنسان أن يجوزه بدون يد تمسكه في هذا المنحدر الخطر. فتارة تقيمه مثل هذه اليد الأمينة من عثرة صغر النفس، وتارة توضعه حتى التراب إلى أن تتصفى الروح من شوائب عزة النفس وكبريائها والبكاء على كرامتها.

درس الطهارة ليس أحلاماً وأماني ونماذج رفيعة وأسماء أو وصايا ومناهج للجهاد وحسب، بل هو أولاً وقبل كل شيء استعداد الخادم أن يكون غاسل أوساخ كالأم التي لا تستنكف أن تمسح وسخ ابنها كل يوم عدة مرات بطول أناة، بصبر، بعدم تأفف، وبرجاء، تنتظر يوم العتق

بلا عتاب، بلا تخويف، بلا انـــزعاج، حتى ينسلخ الطفل من ضعفات طفولته وينسى كل ما كان للطفل؛ وإن أي جهالة في الرعاية كفيلة بأن تصعب الشفاء تماماً مثلما يقسى على الطفل بلا تعقل فيعجز عن أن ينسلخ في الوقت المناسب عن ضعفاته فيحملها معه حتى إلى طور الرجولة.

هي إذاً دروس حياة، حياة أبدية تُعدُّ الشاب لا لمواجهة أسئلة الناس بل أسئلة نفسه، وترفعه لا فوق مستوى الآخرين ليتعالى بالمعرفة، بل ترفعه بالحق فوق مستوى أهوائه وشهواته ونـــزواته ليكون أصغر الكل والمستمتع بالمتكأ الأخير. لا تؤهله لمعرفة الكلام وكتابة الكتب، بل تؤهِّله للتعرف على نعمة المسيح لكشف خطاياه وعيوبه.

هي دروس لا تُلقَّن للعقل على مستوى الحفظ وتكديس المعلومات، بل هي قيادة وريادة في ميدان الروح يتحول فيها الكلام والنصح والتوجيه والتوبيخ إلى إيمان ورجاء وحب، يعمل ويظهر في السلوك والأخلاق والطباع؛ حيث وسائل الإيضاح لا تعود أوراقاً وأخشاباً وألواناً وألاعيب، بل برهان الروح في القلب وإحساس الضمير، وظهور المسيح في أعماق النفس، وعِشْرة الآباء والأنبياء والقديسين، ومعايشة قصص الكتاب كما هي يوماً بعد يوم. والامتحانات والجوائز والحوافز لا تعود مجرد صور وهدايا وحلويات بل النجاحات والإخفاقات التي يعيشها الخادم ويواجهها المخدوم تجاه وصايا المسيح وتعاليمه وحيث لا يعود الدرس ميعاده ساعة بل يمتد ليغطى حاجة العمر كله، والامتحان في نهاية السنة لا يشهد قط على كفاءة التلميذ بل يوم الدينونة.

ما أعظمها وأَجَلَّها خدمة!

وما أصدقه الخادم الوفي الأمين حينما يقول كما يقول الرب لتلاميذه: «**تعلموا مني** لأني وديع ومتواضع القلب». «**أنتم تدعونني معلماً** وسيداً. وحسناً تقولون لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض **لأني أعطيتكم مثالاً** حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً» (يو ١٣: ١٣-١٥).

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار – ٧ نوفمبر ١٩٧١

٢٧ بابه ١٦٨٨

عيد القديس أنبا مقار أسقف إدقاو (بأسيوط).

الخِدْمَة

الجُزْءُ الأَوَّل

ملخص:

١- مقياس الخدمة

٢- مؤهلات الخادم

٣- جوهر الخدمة

الطاقات المتعلقة بجوهر الخدمة

٤- المخدومون

أمراض المخدومين

(١)

مقياس الخدمة

«وإن أطعمت كل أموالي وإن سلَّمت جسدي حتى أَحترق، ولكن ليس لي محبة، فلا أنتفع شيئاً» (١كو١٣: ٣).

هذا هو مقياس الخدمة. وكل مقياس آخر تُقاس به الخدمة خلاف "**المحبة**" هو مقياس بشري.

مقياس المحبة في الخدمة يقوم على أساس:

أولاً: المحبة لله بحيث تكون كل خدمة مهما كانت صغيرة أو كبيرة بدافع المحبة لله: **«يا سمعان بن يونا أتحبني... ارعَ خرافي»** (يو٢١: ١٥، ١٦).

ثانياً: المحبة للمخدوم بصفته ممثِّلاً شخصياً للرب يسوع: **«... الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم»** (مت ٢٥: ٤٠).

ثالثاً: المحبة للكنيسة جسد المسيح، والتفاني في حفظها من الضعف: **«هكذا أنتم أيضاً إذ إنكم غيورون للمواهب الروحية اطلبوا لأجل بنيان الكنيسة أن تزدادوا» (١كو ١٤: ١٢).**

تزييف مقياس الخدمة:

مقياس الخدمة معرَّض للتلف بتأثير عوامل كثيرة منحطة، كالانتفاع المادي أو المعنوي... إلخ. ولكن أخطر عوامل التلف هو تعرُّضه للتقوى الشخصية، أي أن تكون الخدمة مظهراً أو استعراضاً للتقوى الشخصية،

وحينئذ يحل البر الذاتي بدل المحبة الطاهرة. وهذا يُعتبر أخطر عوامل التلف، لأن بقية العوامل الأخرى كفيلة بأن تنفضح مع الزمن وتنتهي من ذاتها، أما هذا العامل فهو يزيف الخدمة تماماً بحيث تظهر حارة وناجحة في الظاهر، بل ويكون لها قدرة على الاستمرار الطويل؛ مع أنها خدمة ليس لها عائد روحي مطلقاً ولا جزاء لها أمام الله.

أعراض تلف مقياس الخدمة:

١- الاهتمام **الزائد** بنتائج الخدمة: الفرح بالنجاح، واليأس من الفشل.

٢- الاهتمام بالخدمة، ونظامها، والتدقيق في ترتيبها **أكثر** من النفوس المخدومة، الذي ينتج عنه أخيراً التضحية بالنفوس في سبيل الاحتفاظ برصانة النظام.

٣- عدم نمو المخدومين في المحبة، وتعلقهم بشخص الخادم **أكثر** من الله.

شعار المعرفة والتعليم الروحي

«إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة... وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم وإن كان لي كل الإيمان حتى أَنقُل الجبال، ولكن ليس لي محبة، فلستُ شيئاً!!» (١كو ١٣: ١و٢).

(٢)

مؤهلات الخادم

أولاً: الدعوة:

من حيث أن الخدمة هي خدمة الرب إذاً يلزم أن الرب هو الذي يدعو من يريد أن يخدمه.

والرب لا يدعو إلا من وجد في قلبه محبة نحوه، واشتياقاً إليه وإخلاصاً له.

ومن حيث أن خدمة الرب هي هي خدمة أولاده الصغار وإخوته الضعفاء، إذن يلزم أيضاً للذي يدعوه الرب أن يكون في قلبه حنان ورحمة ومحبة مُشفقة نحو الصغار والضعفاء.

وهكذا نرى أن علامة الدعوة التي تثبت أن الشخص مدعو للخدمة هي كالآتي:

(أ) أن يكون في قلبه محبة نحو الله واشتياق إليه وإخلاص له.

(ب) أن يكون في قلبه حنان ورحمة ومحبة وشفقة نحو الآخرين، وبالأخص الصغار والضعفاء.

فإذا وُجدت هاتان العلامتان، فليتأكد الشخص أنه مدعو من الله للخدمة.

فدعوة الله لا تكون بالكلام ولا بالأحلام، وإنما بعطية المؤهلات الروحية اللازمة للخدمة.

والعطية الروحية للتأهيل للخدمة تبدأ غالباً صغيرة، وتنمو بالأمانة والمثابرة والصلاة.

ثانياً: مرونة التلمذة:

لا يُدعى أحد لخدمة الرب وهو كامل، ولا يوجد خادم للرب، مهما كان، في غنَى عن التوجيه، لذلك يلزم أن يظل خادم الرب محتفظاً بعقل وقلب تلميذ كل أيام حياته!

بل ويلزمه أن يسعى باجتهاد كل يوم ليعرف من الرب ما هي نقائصه وعيوبه، ولا يجزع من توبيخ الروح القدس على فم الآخرين، ولا يستعلي على النقد والتوجيه أينما وجده.

هذه المرونة تجعل تلميذ الرب قابلاً للنمو في محبة الله والمخدومين دائماً.

ثالثاً: قدرة الخادم على كشف الأنانية في ذاته ومحاربتها:

الخادم المدعو من الله شديد الحساسية بأنانيته، وتجده يتربص لنفسه في كل ما يقول ويعمل، حتى يكتشف الاتجاهات التي تبرز فيها أنانيته ويحاربها بالانتباه والسهر والصلاة والدموع أمام الله، والوقوف ضد نفسه موقفاً حازماً. لا يوجد خادم عديم الأنانية تماماً، ولكن أخطر خادم هو الذي لم يكتشف بعد اتجاهات الأنانية في ذاته.

الخادم الأمين الناجح لا يخشى إظهار خطئه ولا يتردد في الرجوع والاعتذار عن أية كلمة أو عمل يكتشف فيه أنانيته. مثل هذا الخادم يحتفظ بمستوى الخدمة عالياً، ويمهد لنموه الشخصي في المحبة حتى في قلوب الناس. والاعتراف المستمر والتدقيق يقطع دابر الأنانية، لأن الاعتراف بالخطية يعطي قوة جديدة دائماً.

رابعاً: الفيض:

الخدمة ليست مجرد تبليغ رسالة أو معرفة أو عمل رحمة، ولكنها رباط محبة أبوي بين الخادم والمخدوم: «يا إخوتي الأحباء والمشتاق إليهم، يا سروري وإكليلي...» (في ٤: ١)، «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم» (غل ٤: ١٩).

فالمحبة التي بين الخادم ومخدوميه مبنية على أساس أن الخادم يبذل شيئاً، يبذل نفسه للآخرين، فهو يعطي إيمانه وحبه وإخلاصه وغيرته، ليزداد إيمان الناس وحبهم وإخلاصهم لله ولبعضهم البعض بالمثل. فالخدمة تشبه الرضاعة «كنا مترفقين في وسطكم كما تربي المرضعة أولادها» (١تس ٢: ٧).

فهي أمومة روحية أو أبوة باذلة مضحية ليس بالجسد فقط بل بكل شيء، كما فعل المسيح.

والخادم لا يستطيع أن يفيض على الآخرين ويغذيهم بالمحبة والإيمان والرجاء والإخلاص، إلا إذا كان هو بدوره دائم الصلة بالرب والتغذية منه. والخادم الناجح لا يتغذى من الله لأجل الآخرين ولكنه يأخذ ويمتلئ لنفسه، وحينئذ من ملئه يعطي الآخرين ويفيض عليهم بسهولة ويظل هو ممتلئاً: «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (مت ٥: ١٦).

الخادم الذي يأخذ ليعطي تجده فارغاً دائماً ومجهداً.

إذا بدأت حرارة المحبة للمسيح داخل القلب، فهذه إشارة إلى أن سيلاً عظيماً من الهبات المقدسة ينتظر انفتاح القلب واستعداده لقبول هبات الله، لذلك فالالتصاق المستمر بالرب هو باب غِنَى الروح وسر الفيض الغامر الذي تحتاجه الخدمة.

خامساً: المجاهرة:

إذا كانت الخدمة مصابة بالأنانية ومقياسها الروحي تالف، فإنك تجدها دائماً حذرة جبانة مهيأة للهرب، غير مستعدة للخسارة، معرضة للنكوص والتوقف، وتجد الخادم دائماً يوازن بين المكسب العائد منها والخسارة الناتجة عنها.

الخدمة الناجحة التي يشدها الحب العميق القلبي تجدها شجاعة مجاهرة وفمها مفتوح، مستعدة لتحمُّل كل الاحتمالات، لأن المحبة الإلهية الصادقة تُنسي الخادم نفسه وتجعل له الخسارة ربحاً. ومن خصائص المحبة، التي لا يمكن أن تفارقها، التلذذ بالبذل والتضحية إلى مالانهاية.

توجد مجاهرة كاذبة مجنونة ليس مصدرها الحب ولكن مصدرها الذات، بسبب حب الظهور واستعراض الشخصية وإثبات وجودها، وغايتها الإثارة والشغب والتخريب والتحدي.

فليحذر من هذه كل خادم لأنها تسيء إلى الخدمة والمسيح.

المجاهرة الصحيحة بالخدمة وديعة مسالمة كالمحبة، مبتسمة دائماً لا تسيء ولا تُقبِّح. ربما تكون الكلمات كالنار، ولكن يسندها قلب متضع ووجه مبتسم وعيون باكية: «لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا» (أع ٤: ٢٠).

المجاهرة الحقة تمجد المسيح وتخلِّد الخدمة.

سادساً: عدم المحاباة:

سبب رئيسي في فشل الخدمة وتشتت الخراف وغرس روح الحقد والحسد والبغضة بينها هو محاباة الخادم لواحد من المخدومين أو بعضهم.

المسيح كان يحابي الضعفاء والمذلولين والمطرودين والخطاة والمنبوذين، لمثل هؤلاء تصير المحاباة شجاعة محبة وشجاعة تحمُّل مسئولية.

الذي يحابي الخاطئ والمنبوذ هو في الواقع يتحمل معه وزْر خطيئته ويشاركه بنصيب مقدس في السمعة الرديئة: «فلما رأى الجميع ذلك تذمروا قائلين إنه دخل ليبيت عند رجل خاطئ» (لو ١٩: ٧).

في الخدمة الروحية لا يمكن أن نضحي بالغنمة الضعيفة أو المريضة في سبيل راحة القطيع وصحته. المسيح ترك ٩٩ خروفاً صحيحاً وذهب يفتش عن خروف واحد أخطأ وزاغ.

إذا جنحت المحاباة ناحية إنسان قوي أو جميل أو لطيف، تصير إشارة خطيرة أن الخادم مريض ويحتاج إلى استشفاء سريع.

هناك محاباة في الخدمة تكون على أساس إرضاء الرؤساء والسادة المتولين على الخدمة أكثر من اتِّباع الحق وتطبيق الوصية وتكريم المسيح نفسه، هذه المحاباة خطرة لأنها تُخرج الخدمة عن حدود العبادة المقدسة لله «فلو كنت بعد أُرضي الناس لم أكن عبداً للمسيح» (غل ١: ١٠). يلزم للخادم أن يكون منقاداً بالروح القدس قبل أن ينقاد لآراء الناس: «كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو ٨: ١٤).

سابعاً: بساطة الروح:

الخادم الذي يستقي علمه ومعرفته من الكتب فقط صعب عليه أن يكون بسيط الروح، لأن معرفة الكتب علم والعلم ينفخ، ولأن إتقان الفهم وإتقان الشرح في الحدود العقلية ينشئ عند الخادم غروراً ومباهاة بالمقدرة الشخصية، وينشئ عند المخدومين تعلقاً بالخادم واندفاعاً في

حماس وجنون لتقليده والتشبه به فوق المطلوب: «وأنا لما أتيت إليكم أيها الإخوة أتيت ليس بسمو الكلام أو الحكمة منادياً لكم بشهادة الله. وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة، لكي لا يكون إيمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله» (١كو ٢: ١، ٤، ٥).

الذي ينجذب إلى بساطة ملكوت المسيح، فإنه من بساطة الروح، يأخذ ويتكلم، ويدعو الناس إلى البساطة الحقيقية التي يعبِّر عنها المسيح بضرورة العودة إلى الطفولة حتى يمكن الدخول إلى ملكوت الله.

الذي يخدم بإتقان الكلمات، معتمداً على أصول المعرفة البشرية أكثر من تلقين الروح القدس، فإنه يضلل الخراف عن الطريق المؤدي إلى الملكوت ويعطل عمل الصليب، لأن الخراف ستتعلق بالخادم وتتوكأ على معرفته، وبذلك يسلب الخادم حق المسيح. من أجل هذا يلزم، مع الاعتماد على بساطة الروح القدس، أن يحاول الخادم أن يختفي عن مواقف الكرامة ما أمكن، يلزم للخادم أن يتراجع ليتقدم الروح القدس وأن يختفي ليظهر المسيح وحده.

على الخادم أن يتيقظ دائماً ليقيس الكلام والآراء التي يعلِّم بها على متطلبات الروح القدس وصفات المحبة حتى لا يقع في فخ الحكمة البشرية والآراء الشخصية: «لأني لا أجسر أن أتكلم عن شيء مما لم يفعله المسيح بواسطتي...» (رو ١٥: ١٨).

ثامناً: مشاركة المخدومين بالروح:

المشاركة الروحية في مشاعر المخدومين وعواطفهم وأفكارهم جزء لا يتجزأ من الخدمة. فالخدمة قبل كل شيء هي نـــزول إلى حالة

المخدومين على الواقع الطبيعي، للتعرف على أحوالهم وتذوُّق ما هم عليه من جهل وفقر روحي وظلمة وبُعد عن الله، ثم الارتفاع بهم إلى فوق بفضل عمل الروح القدس وإنارة الوصية وقوة الإيمان والرجاء والمحبة.

فالخدمة لا تترفع عن أسوأ الحالات التي تتردى فيها النفس الإنسانية ولا تزدري بما يعلق بالنفس من وسخ الخطيئة.

الخدمة ليست كلمة من على منبر وإنما مسك يد الخاطئ والضعيف والعبور معه من الظلمة إلى النور ومن الموت إلى الحياة.

المشاركة العاطفية مع إنسان متألم بالجسد، أو مصاب بحادثة، شيء جميل، ولكن المشاركة الروحية مع إنسان خاطىء يعاني ازدراء الناس وتنكُّر الجماعة، عمل لا يدانيه عمل آخر، هو نفس العمل الذي تجسد المسيح ليكمله: «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو ٥: ٢١).

لا يمكن أن ينجح الخادم في رفع إنسان من منطقة اليأس والظلمة والموت، إلا إذا كان مستعداً بالإيمان والحب أن يدخل معه إلى نفس هذه المناطق، وكان متسلحاً بالرجاء أيضاً لكي يصعد به إلى النور والحياة بقوة الله: «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم» (إش ٦٣: ٩).

تاسعاً: الإحساس الدائم بالضعف:

لا يستطيع الخادم أن يرثي للضعفاء والمزدَرَى بهم إذا لم يكن هو عائشاً فعلاً في الإحساس بالضعف الشخصي وفي حالة ازدراء حقيقي بنفسه! ففي اللحظة التي يبدأ فيها الخادم أن يثق بنفسه، ويشعر بتفوقه وقوته، تبدأ تحدث مفارقة خطرة بينه وبين المخدومين، ويبتدئ الشاب

يشعر بصغر النفس ويحس بوجود هوة سحيقة تفصله عن المستوى العالي للخادم، فإما ييأس من اللحاق بالخادم، وإما يبتدئ يؤلِّه الخادم ويحيطه بهالة قداسة ومخافة، وفي هذا وفي ذاك لا يمكن أن يتمجد الله الذي قيل عن ابنه إنه «صُلِبَ من ضعف» (٢كو ١٣: ٤).

جيد للخادم أن يذكر ضعفه دائماً ولا ينسى خطاياه بحجة أنها غُفرت. وحينما يواجه ضعفات المخدومين لا يزدري بها مهما كانت كثيرة أو شنيعة، فالخادم الصالح لا يجب أن يثق فيما هو فيه من نعمة، وعليه أن يضع نفسه دائماً موضع الضعفاء لئلا يوجد أمام الله غير مستحق لما هو فيه.

بل يلزم أيضاً للخادم أن يظهر أمام مخدوميه بمظهر الإنسان الضعيف الذي يعتمد فقط على مؤازرة الله وعمل نعمته، لأن في ضعفه فقط الله مستعد أن يُظهر قوته «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل» (٢كو ١٢: ٩).

وحينما يتحقق المخدومون من طبيعة خادمهم العادية بل والضعيفة أيضاً، حينئذ سينسبون كل نجاح في الخدمة وكل قوة في الوعظ أو العمل أو المشورة إلى الله رأساً، وهكذا تعود كرامة الخدمة لصاحبها الوحيد: «لنا هذا الكَنـــز في أوانٍ خزفية (طينية) ليكون فضل القوة لله لا منا» (٢كو ٤: ٧).

عاشراً: وفاء الخادم لبقية الخدام في الكنيسة كلها بدون تمييز:

أي خادم حتى ولو أُعطي قدرة رسولية، لا يستطيع أن يجمع ويخدم خراف الله التي على وجه كل الأرض! المسيح وحده قادر على ذلك وقد أعطى خدامه معاً هذه القدرة، فالخدَّام جميعاً يعملون عمل المسيح الواحد.

إذا استقل خادم عن غيره أو تعالى على الآخرين أو تجاهلهم أو ازدرى بهم فإنه يسيء إلى عمل المسيح ويضرُّه وينقل إلى خرافه، دون أن يدري، روح الانقسام والشقاق والتحزب والفُرقة.

كل خدمة تنتهي بالتحزب والشقاق يثبت قطعاً أنها ليست من الله، وهي تضر الكنيسة.

الخادم المدعو من الله ليعمل عمل المسيح هو دائماً يجمع مع المسيح ولا يفرِّق، ويعلِّم الخراف كيف تحب كل الخدام وتحب كل المخدومين في كل خدمة باسم المسيح داخل الكنيسة.

والوسيلة الوحيدة التي نُجنِّب بها الخراف العثرات التي تظهر في خدمات الآخرين هي أن نُلقِّنهم الصواب ونُعرِّفهم الحق، لا أن ننتقد الآخرين قدامهم فنعلمهم بذلك الجدل والدينونة ونُخرجهم عن بساطة الحياة في المسيح وبساطة الملكوت.

محبة الخادم لبقية الخدام حينما تظهر واضحة أمام المخدومين بإخلاص حقيقي ووفاء، تكون بمثابة حجر الزاوية لتسليم المخدومين روح الوحدة والألفة داخل الكنيسة. فإذا كانت الوحدة هي هدف المسيح النهائي من الفداء حينما يصير المؤمنون به واحداً فيه ومع الآب، وإذا كانت المحبة هي الوسيلة الإلهية التي تخدم هذه الوحدة المقدسة في الله، حينئذ يظهر بوضوح أن عمل الخادم الأول أن يسلم أولاده هذه الوسيلة الإلهية عملياً بالمثل الحي والقدوة الناضجة «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضاً لبعضٍ» (يو ١٣ :٣٥).

وليعلم كل خادم حينما ينظر إلى أخيه وينتقده ويدينه أن لكل إنسان موهبته ولا يليق قط أن يزدري القوي بالضعيف ولا الضعيف بالقوي.

(٣)

جوهر الخدمة

جوهر الخدمة شيء، ومظهرها شيء آخر.

مظهر الخدمة يتعلق بالنظام والترتيب وأنواع العظات وكيفية الصلوات والخدمات المتعلقة بحاجات الضعفاء وتقسيم هذه المهام على المسئولين، وتوجيه المسئولين لاستيفاء معرفتهم من خبرات السابقين ومن الكتب وتزويدهم بالحاجات الضرورية للخدمة.

أما جوهر الخدمة فهو توصيل الحياة الأبدية للمخدومين الذين وضعهم الله في مسئوليتنا: «من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت ٤: ١٧).

وتوصيل الحياة الأبدية هو أن يقبل الإنسان عمل المسيح الذي عمله من أجله والذي استودعه للكنيسة لتوصيله إلى كل من يؤمن به بواسطة الإنجيل والأسرار المقدسة.

من هذا يظهر أن القيام بمظاهر الخدمة أمر سهل وممكن لكل إنسان، أما القيام بجوهر الخدمة فأمر مهول جداً وفوق قدرة أي إنسان مهما سمت قدراته الشخصية، ومواهبه الطبيعية، لأنه يتعلق بحياة الله نفسه، ولا يمكن أن يتم بصورة منظورة.

فجوهر الخدمة عمل سري فائق لطبيعة الإنسان.

فإذا تحققنا من طبيعة جوهر الخدمة جيداً لا نعود نخطئ في استخدام الوسائل المتعلقة بها.

الطاقات المتعلقة بجوهر الخدمة

أي وسائل توصيل الحياة الأبدية في شخص يسوع المسيح،

كما تعرفها الكنيسة، إلى قلوب المخدومين

أولاً: الإيمان الحي:

أبسط صورة لقوة الإيمان الحي أنه ينقل الجبل والشجرة من مكان لمكان، كما قال الرب يسوع، وهذا العمل جعله السيد المسيح في حدود أصغر إيمان حي، وجعل مقياسه حبة خردل. ولكن يلاحظ أنه مع الصغر الشديد الذي لحجم بذرة الخردل فإنها تمتاز بوجود **حياة** داخلها، فالذي سينقل الجبل أو الشجرة ليس الإيمان المجرد وإنما الإيمان الحي.

فالمطلوب في الإيمان هو الحياة، والحياة التي في الإيمان ليست كالحياة التي في بذرة الخردل، وإنما هي حياة أبدية، من حياة الله، أي يلزم أن يكون الإنسان عائشاً مع الله يؤمن ويحيا به!!

أما الصورة العظمى للإيمان فهي أن ينقل الإنسان الحياة الأبدية التي يعيشها، التي في إيمانه، ليهبها بالحب والتعليم الصادق إلى الآخرين، حتى يستطيعوا أن يؤمنوا بها ويتقبلوها بواسطة الكنيسة «... الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا» (١يو ١: ٢-٣).

هذا هو جوهر الخدمة: أن الحياة الأبدية التي نعيشها نخبر بها الآخرين

ليشتركوا معنا فيها!! الصورة الأولى البسيطة لقوة الإيمان في نقله الجبل والشجرة، أمر غير مطلوب منا، وهو ليس واجباً على أحد؛ لذلك لا يعطَى إلا لسبب أو ضرورة يراها الله.

أما الصورة الثانية العظمى للإيمان في نقله الحياة الأبدية من قلب لقلب فهي ضرورة موضوعة على كل من ينال هذه الحياة «...ومن يسمع فلْيقُل تعال...» (رؤ ٢٢: ١٧).

لذلك فالإيمان الحي اللازم لجوهر الخدمة هو عطية مجانية عامة لكل من يقبلها.

الإيمان الحي إيمان يُصدِّق تصديقاً كاملاً أن الله قادر أن يقيم من الأموات!! لذلك فهو لا يستصعب رجوع أي خاطئ، حتى ولو كانت خطيته تساوي الموت نفسه! ومن أجل هذا كل من كان له إيمان حي لا يطيق أن يرى الخطاة غير تائبين، ولا يحتمل أن يسكت أو يتخلى عن الخدمة حتى ولو هُدِّد بالموت.

الإيمان الحي تكمن فيه «**ثقة**» بالله لا تُحدُّ اعتماداً على صفته الشخصية «**كقادر على كل شيء**»، ويكمن فيه «**يقين**» بأنه فاعل حتماً «**كل ما وعد به**»، لذلك فاستجابة الإيمان الحي هي بسبب الثقة واليقين أيضاً.

ونحن لو رفعنا الإيمان الحي من الخدمة بما يتضمنه من ثقة ويقين، لما تبقَّى منها إلا المظهر.

ثانياً: سر المسيح:

أن يكون الإنسان مسيحياً حقاً بمعنى أنه يعيش بروح المسيح ويعمل بوصاياه، هذا يدخل ضمن سر الخليقة الجديدة، الأمر الذي لا يستطيع إنسان ما، مهما كان عالماً وحاذقاً أن يفسره أو يشرحه. والمسيح نفسه قال عن هذا الأمر أنه يتم بالروح القدس سراً دون أن يراه أو يلحظه إنسان، كهبوب الريح لا يعرف الإنسان من أين يبدأ وإلى أين ينتهي.

جوهر الخدمة أن يصير الإنسان مسيحياً حقاً على يدي الخادم، أي يتم فيه سر المسيح غير المفحوص وغير المدرك.

جوهر الخدمة إذن ليس مجرد تعليم أو وعظ أو شرح، وإنما هو تسليم سر المسيح الذي يفوق كل عقل.

وسر المسيح ليس معرفة أو تعليماً أو مجرد سلوك وأخلاق، وإنما قبول روح المسيح وحياته. فالذي له روح المسيح له المسيح وهو مسيحي، والذي ليس له روح المسيح فالمسيح ليس له.

«إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له» (رو ٨: ٩).

أي أن جوهر الخدمة ليس مجرد تبليغ مبادئ وأفكار ومُثُل، وإنما هو توصيل روح وحياة.

«ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس» (١كو ١٢: ٣).

حينما يدرك الخادم ما هو جوهر الخدمة سيلتفت في الحال إلى نفسه وسيبحث عن جوهر الخدمة في أعماق قلبه وليس في الكتب والمذكرات.

الكتب والمذكرات هي دعامة المظهر والصورة التي لا غنى عنها في توصيل الروح للمخدومين، ولكن بدون الروح والحياة ماذا تنفع الكتب وماذا ينفع الدرس مهما بلغ إتقانه؟

وحينما نلتفت إلى الكنيسة كيف كانت، وما زالت، تقدم سر المسيح للمؤمنين صغاراً وكباراً؛ نجد أنها لا تقدمه بالتعليم والوعظ فقط، بل ما تعلم به وتعظ به من على المنبر تقدمه بصورة سرية عملية في أسرارها السبعة.

إذن، أساس الخدمة في الكنيسة ليس التعليم فقط، فالتعليم لا يمثل إلا الجزء الظاهري من الخدمة، أما الجزء الجوهري السري فهو لا يقدَّم بصورة كلام وإنما بتوصيل روح المسيح وحياته إلى قلوب المؤمنين بطريقة غير قابلة للفحص! بحيث لو اعتمدت الكنيسة على الوعظ فقط واستغنت عن الأسرار، فهذا معناه أنها تخلَّت عن جوهر الخدمة السري، وما عاد ممكناً أن تسمى كنيسة.

هكذا أيضاً في خدمة الخدام، فلو اعتمد الخادم على الرسالة الشفوية دون الاعتماد على عمل الروح الداخلي فهو يمثل كنيسة بدون أسرار.

كل خادم يمكنه أن يخدم المظهر والشكل، ولكن يستحيل أن يستطيع خادم توصيل الروح والحياة إلى قلوب المخدومين إلا إذا كان فيه روح المسيح وحياته.

ثالثاً: سر المحبة:

نقول سر المحبة، لأن المحبة شيء وسر المحبة شيء آخر، إذ يمكن لكل

إنسان أن يتذوق المحبة حتى الطاهرة أيضاً ويبقى كما هو، ولكن أن يُعطَى الإنسان سر المحبة فلا يمكن أن يبقى كما هو بل يبدأ، في الحال، في أن يبذل نفسه.

المحبة المسيحية لا تبقى وحدها. كل أنواع المحبة تبقى كما هي لذلك تموت وتضمحل، أما المحبة المسيحية فهي حية، والحياة فيها منسكبة في كل اتجاه. وهذا هو سر بقائها ونموها حتى في أسوأ الظروف. فالمحبة المسيحية أقوى من الموت لأن فيها سر قيامة المسيح وحياته الأبدية.

لا يمكن أن توجد خدمة صادقة فعَّالة بدون سر المحبة، لأن الخدمة الفعَّالة تقيم النفوس الضعيفة والمائتة. وهذا لا يتم إلا بقوة سر المحبة. كل خادم يمكنه أن يوصل كلام ووصايا وتعاليم المسيح للناس دون أن يخسر شيئاً، بل ربما يكتسب شهرة وكرامة ومجد الناس، ولكن الخادم الذي يوصل جوهر الخدمة لمخدوميه أي يعطيهم الروح والحياة فهو خادم يلزمه سر الحب المسيحي.

وواضح من آية بولس الرسول أن الخدمة مهما كانت قوية وحارة ولكن ينقصها سر الحب المسيحي، فإنها لا تنفع شيئاً. فالخدمة يمكن أن تكون حارة وقوية بدوافع شخصية كثيرة ولكن بدون حب حقيقي، وحينئذ تصير خدمة بشرية فاشلة ميتة لا تعود بفائدة لا للخادم ولا للمسيح ولا للمخدومين. سر المحبة المسيحية يرفع الخدمة من المستوى البشري ويجعلها للمسيح. المحبة المسيحية ليس معناها الحماس للبذل، إذ يمكن للخادم أن يقدم جسده حتى يحترق دون أن يكون الدافع محبة المسيح، إذ ربما يكون شجاعة بشرية أو تهوراً أو تحدياً.

المحبة المسيحية مثل إبرة المغناطيس في البوصلة، تتحرك في كل اتجاه ولكن يشدها بقوة سرية القطب الشمالي وحده، ويتحكم في كل حركتها. هكذا أيضاً شخص المسيح فهو وحده الذي يتحكم في أعمال الخادم وعواطفه وحركاته وانفعالاته بسر الحب الذي ربط قلبه به إلى الأبد.

فإن كانت الخدمة معمولة بمحبة المسيح وبدافع القوة التي تجذب القلب نحوه، حينئذ سيكون أقل حركة وأقل بذل ذا تأثير إيجابي على المخدومين. بمعنى أن قلوبهم ستنجذب هي أيضاً نحو المسيح لينسكب فيها الحب نفسه. فالخادم الذي فيه سر الحب الإلهي يستطيع أن يجذب المخدومين إلى حب المسيح، وهذا هو جوهر الخدمة.

لو انفصلت الخدمة عن سر محبة المسيح لصارت رياضة جسدية أو استعراض قدرات أو مجرد مهنة. المحبة تؤمِّن الخدمة ضد البر الذاتي، وتحفظ الإيمان في خدمة الحق.

إن الشاب الغني لم ينفعه إتقان التعليم وحفظ الناموس كله منذ الحداثة، لأنه لما طُلب منه أن يبيع أمواله ويتبع المسيح ليرث الملكوت، لم يجد ذخيرة من المحبة تكفيه للقيام بهذا البذل!! فكل معرفة صحيحة تقربنا من الملكوت، ولكن لن يُدخلنا إليه إلا البذل الكامل والتسليم النهائي الذي هو عمل المحبة.

رابعاً: قوة الصلاة:

قوة الصلاة تصل الخادم بالمخدوم سرّاً. إنها تؤلف وتوحد بين قلبيهما وروحيهما. الصلاة تعمل عملاً تمهيدياً إعجازياً لتوصيل الخدمة، وبدون قوة الصلاة تظل إمكانيات الخادم محصورة داخل قلبه

مهما كانت روحية وكاملة.

بالصلاة الحارة المخلصة يتلاشى كيان الخادم من عيني نفسه وتذوب أنانيته، فيصير مهيأ للعطاء دون تعالي، فيرتاح فيه روح الله، ويعبر من خلال قلبه وفمه للمخدومين بدون مانع!!

بالصلاة ينفتح قلب المخدوم وتستنير عينا ذهنه الروحية، فيستقبل عطية الروح القدس خالصة نقية وينسكب في قلبه الحق بدون نقاش أو جدل أو تشكيك.

بالصلاة يحل الروح القدس فيرفع الحواجز الصعبة بين الخادم والمخدومين؛ الحواجز التي صنعتها البيئة والحواجز التي صنعها التعليم الخاطئ والحواجز التي يدسها العدو لتعطيل قبول الحق.

بقوة الصلاة تتحول الكلمات الهادئة إلى رعود وبروق تعصف بالضمير النائم لتوقظه من سبات الخطية والانحلال والكفر.

بقوة الصلاة تذوب القلوب العنيدة والضمائر التي بيَّتت النية على المقاومة.

بقوة الصلاة يزول الجفاء من القلوب ويهرب روح العداوة وتتكسر فخاخ الأعداء وينسحب المقاومون للخدمة.

في الصلاة يعلن الله مشيئته ويلقي شبكته ليصطاد النفوس الحلوة التي اختارها لتمجده، وتعلن اسمه، وتصنع مشيئته، وتشهد له.

في الصلاة تنسكب المواهب وتتوزع العطايا ويزداد الإيمان وتتحرر النفوس المكبلة بالخطية، ويخرج الجميع محملين بغنائم الروح القدس.

الصلاة لجام سري مقدس أول ما نثبِّته في أفواهنا، يسوق الله الخدمة إلى حيث يشاء!

الصلاة زينة الخادم التي يتزين بها قبل أن يتراءى أمام مخدوميه لينظروا في وجهه صورة العريس السماوي فتأكلهم الغيرة والشوق أن يهبوا أنفسهم له.

الصلاة تختم على وجوه المخدومين بختم بهاء الروح القدس، فتسري في وسط الجماعة رائحة السماء، وينقاد الجميع إلى مرضاة الله.

بالصلاة يعود مجد الخدمة وكرامتها لله، حيث يعطي له الجميع كل البركة والعظمة والحكمة والسلطان مُكرِّمين المسيح الذي أهَّلنا أن نكون خدامه!

(٤)

المخدومون

كما أنه يوجد راع صالح، كذلك توجد غنمة صالحة. ولكن يوجد في القطيع جميع القدرات، وأمثلة كثيرة للضعفاء مثل المرضى والرضعان والحملان الصغيرة. والراعي الصالح هو الذي يقود القطيع بحكمة ولا يتأفف من الضعفاء.

كثيرون منا يعتبرون أنفسهم رعاة مع أننا كلنا خراف وكلنا ضعاف!

كثيرون منا بالرغم من مظهر الصلاح الخارجي والتقوى وإتقان تمثيل القداسة، إلا أننا في نظر الله مرضى بل «موتى بالخطايا والذنوب» وخراف جربانة في القطيع! أما مرضنا فهو أننا نحاول أن نتجاهل حالتنا. بالرغم من وجود الخطية في حياتنا فنحن مطمئنون وساكتون حالتنا مثل خروف ضرب المرض في أحشائه بسبب أكله بعض الحشائش السامة، وبالرغم من إحساسه بالمرض لا يزال يجتر منها بسبب طعمها اللذيذ، هو جالس وسط القطيع ومنظره كأنه سليم ولكنه جالس يجتر السموم.

هكذا الكثير منا جالس في الكنيسة يجتر في خطاياه.

يلزمنا أن نتقيأ الخطيئة أولاً حتى يمكننا أن نتبع الراعي الصالح ونغتذي عنده في مرعى القداسة.

شرط للمخدومين لكي تثمر فيهم الخدمة والصلاة أن يتطهروا من الداخل، أي أن يكون قلبهم طاهراً مستعداً لقبول روح الله وعطيته، وإلا فلن تثمر فيهم الخدمة، مثل الخروف المضروب جوفه بالمرض فهو لا ينتفع بأجود المراعي.

أمراض المخدومين

أولاً: التذمر من الدخول من الباب الضيق:

هذا يعتبر وباء العصر الحديث. فالجميع يطلبون الراحة والتسلية والاتساع، والعالم يتفنن في تقديم كل وسائل الراحة للناس، وهو يُسخِّر لهم العلم والعقل والمال لتقديم الراحة بأرخص الأثمان. وملكوت الله يحتاج إلى أن يقمع الإنسان نفسه ويرفض اللذة ويقاوم الاتساع، فأيهما تختار؟

إما أن ينحاز الإنسان للعالم وشهواته فيدخل من الباب الواسع ويحقق مسرته ولذته وينسى نفسه بالتسلية والمتع التي لا حصر لها، وإما ينحاز الإنسان لله ومحبته ويدخل من بابه الضيق ويحقق القداسة والرزانة ويُفرِح روحه بعشرة الله والحياة له.

يستحيل أن يجمع الإنسان بين لذة الجسد ولذة الروح.

يستحيل أن يوفق الإنسان بين تسليات ومسرات الجسد وعزاء النعمة.

ملعون الراعي الذي يقود غنمه لتشرب من نقع الخطيئة! وملعونة الغنمة التي تأكل السم وتدعو الآخرين.

أيها الراعي الذي يريد أن يفرح بغنمات كثيرة ويفتخر بالأرقام وكثرة الحضور، احذر أن توسع الباب الضيق!! لأن باب الرب سيبقى ضيقاً والذين يجدونه سيظلون قليلين.

الباب الذي يحاول الخدام العصريون أن يفتحوه واسعاً أمام المخدومين

إرضاءً لمزاجهم أو استجابة لمطالبهم سوف لا يوصلهم إلى الحياة الأبدية بل إلى الهلاك.

فعلينا نحن المخدومين «أن ننكر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقُّل والبر والتقوى في العالم الحاضر» (تي ٢: ١٢).

ثانياً: المراوغة أمام سيف الكلمة:

«كلمة الله حية وفعَّالة وأمضى من كل سيف ذي حدين، وخارقة إلى مفْرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميزة أفكار القلب ونياته» (عب ٤: ١٢).

كثير منا يعبر على بعض الآيات فيغض الطرف عنها، وحينما يسمع وصية معينة يحاول أن لا يقف عندها بفكره، وحينما يصغي إلى التعليم والعظات، يتلافى الكلمات المصوَّبة نحوه ويتهرب من تأنيب الضمير.

صحيح أن الكلمة سيف مسلول ذو حدين، ولكن «سيف» في يد من؟

لو كان في يد عدو، لحقَّ لنا أن نـــزوغ ونراوغ ونهرب لأنه سيغرسه حتماً في مكان الموت!

ولكن الكلمة هي كلمة الرب الذي ذبح نفسه على الصليب لينتزع لنا الحياة الأبدية من وسط ظلمة الموت والهلاك!

هي سيف، ولكن في يد الروح القدس الوديع الهادئ الذي يريد أن يغرسه في الإنسان للفصل بين النفس العتيقة التي تطلب العالم والروح

الخالد الذي يطلب الحياة.

متى كان الجرَّاح مكروهاً؟ أو من ذا المريض الذي يود أن يعيش ولا يستسلم لإنغراس مشرط الجرَّاح في أعماق اللحم حتى القلب؟

آه لو عرف المخدومون قيمة الكلمة الموجعة والوصية المسننة المصوَّبة ناحية القلب الغاش والضمير الماكر والنفس المستبيحة والأعضاء الملتهبة. لو عرفوا أن هذا السيف الحاد يطلب لهم طهارة السيرة ونقاوة الضمير ونور الحياة؛ لقبضوا على السيف بيدهم وغرسوه في ضمائرهم حتى القلب ليستنـــزفوا الدم الأسود الفاسد؛ ويتحملوا كل ألم وكل تعيير وتشهير وتعنيف إلى أن يموت الإنسان العتيق.

إذا دخل الإنسان ليسمع كلمة الله وهو غير مستعد لقبول سيف الكلمة لكي تخترق قلبه وتكشف فضائح ومكنونات ضميره، أو وهو غير مستعد أن يقع تحت حد السيف ليفصل بين الموت الذي فيه وبين الحياة؛ فالكلمة التي للخلاص تتحول إلى دينونة.

آه، لقد أتى الزمان، الذي تنبأ عنه بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس، الذي فيه ستتضجر الآذان من سماع الحق الصافي ويتحول الناس إلى التعاليم السهلة ويصدقون الخرافات لأنها تعفي ضمائرهم من توبيخ الحق المتسلط! «سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح، بل حسب شهواتهم الخاصة يجمعون لهم معلمين مستحكة مسامعهم، فيصرفون مسامعهم عن الحق وينحرفون إلى الخرافات» (٢تى ٤: ٣، ٤).

ثالثاً: الشيخوخة الروحية:

كما يصاب القطيع بالعقم، أو كما تدب الشيخوخة المبكرة في إنسان فتتهدم عافيته وتنحل حواسه وينحني ظهره وهو مازال في سن الشباب، كذلك يحدث للرعية أو المخدومين إنما في مجال الحيوية الروحية والنمو في عشرة الله واكتساب القداسة.

ربما يكون بسبب جفاف المرعى، وربما يكون بسبب التعاليم الهزيلة والأمثلة الميتة. وقد يكون بسبب الانصباب وراء الشهوات الجسدية التي تستنـــزف عصارة الحياة وتفسد طعم القداسة. وكثيراً ما يكون بسبب شدة الجري وراء الأموال والتجارة في الدنيويات أو غواية العلم الكثير وتسخير كل الوقت وكل الصحة وكل الاهتمام للحصول على الدرجات العلمية، التي ما ينالها أن الإنسان إلا ويكون قد فقد شباب الحياة وعافية العمر، وعافت نفسه القراءة والبحث وكل اهتمام.

الشيخوخة الروحية معناها أن الأذن قد كلّت من سماع نداءات التوبة والرجوع إلى الله بعزم القلب، فيصرخ الواعظ والمعلم وكأن السامعين أشباح ميتة لا تتحرك، وكل إنسان ينظر إلى أخيه كأنه هو المقصود وليس نفسه.

الشيخوخة الروحية معناها أن العين كلّت من القراءة في الكتاب المقدس وبقية الكتب الروحية. فالكلمات واقفة في مكانها باردة، والعيون سريعة النعاس لا قدرة لها على المتابعة واليقظة!

الشيخوخة الروحية معناها أن القلب تحجر وفقد خاصية الالتهاب

بالروح وماتت حساسيته من جهة مفاعيل النعمة، فما أن يقف الإنسان ليصلي أو يسمع الصلاة إلا ويتثاءب ويتثاءب ويتثاءب حتى يصير أضحوكة بين الواقفين! وهو لا يحس ولا يشعر كأنه غير موجود!!

الشيخوخة الروحية أن لا يعود الغذاء الروحي بذي نفع. فالأسرار ميتة بالنسبة لحياته والخدمات روتينية باردة والعظات سقيمة والكتب الروحية لمجرد التسلية. لقد أصيبت الروح بالانطفاء ولم يبقَ داخل القلب إلا تشويش وآثار نعمة لحياة ماضية يستخدمها الإنسان في تغطية المواقف.

الشيخوخة الروحية معناها أن الإنسان يفقد القدرة على الرجوع إلى الله بعزم القلب، فما أن يعزم ويتوب ويعاهد الله إلا ويجد نفسه ينسحب قليلاً قليلاً حتى يصل إلى حيثما كان أولاً، وبتكرار المحاولة يتضح العجز!!

آه! ليس من وسيلة للتغلب على الشيخوخة الروحية إلا بصلب الذات وقطع كل الموارد التي يتغذى عليها الإنسان العتيق، وأن ينفض الإنسان عن نفسه كل اهتمام إلا بخلاص نفسه!

«يجدد مثل النسر شبابك».

رابعاً: تسويف العمر باطلاً:

هذا مقطع دعاء من أدعية صلاة تحليل الكاهن في نصف الليل حينما يطلب الكاهن أن يُلهم الله شعبه حتى ينجو من تسويف العمر باطلاً كفخ من فخاخ العدو.

إذا غرس الشيطان هذا المرض النفسي داخل الإنسان، استطاع أن يفوِّت عليه كل الفرص التي يستخدمها الروح القدس لنخس القلب لإنهاضه من حالة الفتور والكسل والملل والضجر، فتضيع جميع المجهودات المقدسة التي يقوم بها الراعي أو الخادم لبثّ روح الغيرة والمتابعة في طريق القداسة والعبادة الحارة. هنا يتأثر المخدوم بالكلام والتوجيه ويحس بقوة الروح ونداء الله، ولكن لا يجد مبادرة داخل نفسه لإطاعة الصوت في الحال بل يحس وكأن حرارة سرت في داخل قلبه ثم تسربت، بدافع التأجيل، حتى - بعد قليل - لا يعود لها أثر.

أين هذا مما قام به بولس الرسول «وفي الحال لم أستشر لحماً ودماً... بل انطلقت...» (غل ١: ١٦، ١٧).

أين هذا من استجابة متى الرسول لما كان جالساً في مكان الجباية وسمع صوت المسيح: «اتبعني»، «فقام في الحال وتبعه» (مت ٩: ٩)!

أين هذا مما صنعته الجموع المحتشدة يوم الخمسين الذين لما سمعوا عظة بطرس الرسول ونخستهم قلوبهم تقدموا في الحال قائلين: «ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة» (أع ٢: ٣٧).

المخدومون إذا أصابهم هذا التخلف والرغبة في التسويف والتأجيل في الاستجابة، طال زمان تعلمهم باطلاً، وشاخوا وهم لا يزالون يحتاجون إلى اللبن لا إلى طعام البالغين. هؤلاء يخاطبهم بولس الرسول: «قد صرتم متباطئي المسامع، لأنكم، إذ كان ينبغي أن تكونوا معلمين لسبب طول الزمان، تحتاجون أن يعلمكم أحد ما هي أركان بداءة أقوال الله، وصرتم

محتاجين إلى اللبن لا إلى طعام قوي» (عب٥: ١١و١٢).

صوت الحق لا يمكن أن يطرق قلب الإنسان عدة مرات بنفس القوة.

إذا رفضنا الحق مرة، صار نداؤه وتحذيره لنا أقل وضوحاً وأضعف تأثيراً، حتى يأتي وقت نبدأ نشك فيه هل هو صوت من الله أو لا!!

يا للحزن الشديد، صوت الله لا يمكن أن يشك فيه إنسان إذا بادرنا من البدء في الاستماع إليه والاستجابة له.

رفضُنا لصوت الحق بداعي التسويف والتأجيل وانتهاز الوقت لتتميم أخطائنا وشهواتنا يُفقد جهازنا الروحي الداخلي القدرة على التقاط نداء الله واستدعائه لنا، وحينئذ يأتي وقت نطلب فيه التوبة بدموع فلا نجدها، كما يقول الكتاب: «إذ لم يجد للتوبة مكاناً مع أنه طلبها بدموع» (عب ١٢: ١٧).

خامساً: تدليل النفس والعطف على الذات:

إذا لم يقلّم الكرم توقّف الطرح وخسر الكرّام الثمر، وإذا قصّر الأب في تهذيب الطفل بداعي الشفقة نشأ رجلاً تافهاً لا يصلح لتحمُّل المسئوليات. هكذا المخدومون، إذا جنح الراعي إلى تدليلهم والعطف عليهم لاكتساب مودتهم، فسد القطيع وتعذر عليهم الصعود إلى مرتفعات المواهب المسيحية وممارسة أعمال الإيمان والحب والبذل.

أما إذا أصيب المخدومون بداء العطف على الذات وتأففوا من توبيخ الكلمة وانتهار الراعي ونخس الروح واستعفوا من تحمل قصاص الكسل

واستكثروا التأديب اللائق بخطيتهم، يتوقف نموهم فجأة بل ويرتدون من على الطريق ويشكُّون في راعيهم وقائدهم؛ فينتهز العدو الفرصة ويغرس في قلبهم سهام التذمر، ويهوِّل لهم مشقة الطريق، ويرعبهم من جهة الأخطار والتجارب، ويسهِّل لهم الطريق الواسع، ويهيىء أمامهم الفرص للارتداد.

آه، ويل للإنسان الذي تسوقه نفسه ويجعل العطف عليها أساساً لإيمانه وسلوكه، لأن النفس المريضة بالعطف على ذاتها تسوقه حتماً إلى الراحة، ومن الراحة إلى الكسل، ومن الكسل إلى اللذة، ومن اللذة إلى الخطية حيث الموت.

أما طريق الله، فيحتاج إلى قوة ضبط داخلي وكبح جماح النفس وركوب المصاعب بشجاعة وتحمل توبيخ الأدب وعقاب الانحراف بمسرة.

الرب يطالبنا أن نحمل الصليب، وما معنى الصليب؟

الرب نبهنا أن طريق الملكوت شاق وخصوصاً على النفس المدللة!

هل نريد أن نُكلِّل دون جهاد؟ هل نريد أن نجاهد دون أن نُجرح من الداخل والخارج؟

هل يمكن أن نقف في الدينونة أمام الله ونعتذر عن إخفاقنا في الجهاد حسب وصاياه بأنها كانت صعبة أو أن كلام آبائنا ومعلمينا كان شديداً أو قاسياً؟؟

أليست الوصية صريحة للآباء والمعلمين؟

«وبِّخْ. انتهر. عظ بكل أناة وتعليم»؟! (٢تى ٤: ٢).

حقاً... «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه» (مت ٧: ١٤)!

الخِدْمَة

الجُزْءُ الثَّانِي

ملخص:

الفصل الأول - في بناء الخادم
الفصل الثاني — في عثرات الخادم
الفصل الثالث — الضرائب المستحقة على الخادم
الفصل الرابع — أفراح الخادم

الفصل الأول

في بناء الخادم

١ – دعوتان وبناءان:

في الكنيسة دعوتان، دعوة للرهبنة ودعوة للكهنوت والخدمة.

والدعوتان بالرغم من أنهما شهادة واحدة للمسيح وتطبيق مباشر لوصايا الرب، إلا أن لكل منهما منهجاً معيَّناً في الحياة والسلوك والصلاة وبقية الواجبات.

فالمدعو للرهبنة عليه أن يبني قلبه وفكره وكل حياته على سيرة الآباء القديسين، واضعاً أمام عينيه باستمرار **وصيتهم الأولى والعظمى أن يبتعد عن العالم والرئاسات، وأن لا تستهويه الخدمة بين الناس مهما كانت الإلحاحات**، وهكذا عليه أن يتمسك بتعاليمهم تمسكاً لا هوادة فيه، وإلا فسوف يجد نفسه في النهاية راهباً بلا رهبنة يعيش تحت اسمها ولا يحمل نيرها، يتكلم باسمها وهو غريب عن دعوتها.

والمدعو للكهنوت والخدمة بين الناس يبني قلبه وفكره وكل حياته على سيرة الرسل القديسين، **واضعاً أمام عينيه باستمرار سيرتهم في الجهاد المتواصل لخدمة المؤمنين ليلاً ونهاراً، في وقت مناسب وغير مناسب**، وما يلزم لذلك من قطع المشيئة والتنازل الكامل عن كل الحقوق الشخصية، والأمنيات، والأحلام التي تتعارض مع جهاد الخدمة، حتى ما بدا منها صالحاً في حد ذاته، كالاستغراق في الوحدة والبعد عن الناس والعزوف عن الكلام، إلا إذا كان بالقدر الذي يزيد الخدمة قوة ونجاحاً، أي أن يكون ذلك لا بدافع مجرد استرضاء النفس، بل لإصلاح

عجزها، وبالنهاية لزيادة كفاءتها للخدمة.

والذي ينبغي أن يتضح أمام أصحاب الدعوتين أنه **كما يُحارَب الراهب بحب الخدمة، يُحارَب الكاهن والخادم بحب الوحدة، وكلا الحربين هما إلحاح من اللاشعور للهروب من الواقع**؛ وذلك إنما يكون بسبب إخفاقات عارضة لا ينبغي أن ينهزم الإنسان أمامها؛ إذ بمجرد أن يتشدد الإنسان بالله ويقف أمامه مجدِّداً عهده متشجعاً بالأمثلة الحية التي سبقته، فإنه يُقبِل على دعوته بغيرة ونشاط ويعود فيرى فيها كل راحته وسلامه وإكليله.

غير أن نوع القراءة والتأمل والدراسة التي ينشغل بها أصحاب الدعوتين لها تأثير مباشر وقوي، فهي إما تزيد الإنسان تمسكاً بدعوته كما تزيده كفاءة في تأدية واجباتها، وإما تتسبب في خلخلتها وإضعاف قيمتها في نظره شيئاً فشيئاً، ثم توحي إليه أخيراً بالاستهانة بواجباتها.

فالراهب الذي يهمل القراءة والتأمل في سير الآباء ووصاياهم، وينشغل **فقط** بدراسة الإنجيل وحفظ الآيات، تبتدئ روحه تفتر من جهة دعوته ووحدته، ثم تُشاغله أحلام اليقظة بالخدمة فيتصور نفسه واعظاً ومخلِّصاً للناس. وقليلاً قليلاً لا يعود يطيق ديره أو وحدته، وقليلاً قليلاً أيضاً يخترع لنفسه المعاذير للنـــزول إلى العالم، أو يخترع له اللاشعور من الأمراض والتخاويف ما يقنعه للإسراع في النـــزول تاركاً دعوته وراء ظهره.

أما الكاهن أو الخادم الذي كرس حياته لخدمة الإنجيل، إن هو أهمل التأدب بكلمة الإنجيل ولم يجلس لها كل يوم ساهراً فاتحاً كل قلبه وذهنه لإرشادها وتعليمها، وانشغل عنها أكثر من اللازم بأخبار المتوحدين

والرهبان ومعجزاتهم ووحدتهم وهدوئهم، فإنه إزاء تعب الخدمة وشقائها يبتدئ يشتهي حياة المتوحدين فيبتدئ يتغنى بدعوتهم وسيرتهم ويغبط سلوكهم وحكمتهم، وقليلاً قليلاً تغمره موجات يائسة من حياة الخدمة. ثم يبتدئ يشك في دعوته كأنها غير مناسبة له، أو كأن الله ظلمه بهذا النير الثقيل لأنه مخلوق لأن يكون راهباً - كما يصور له اللاشعور - فينطلق لسانه بالتذمر وتبتدئ رجلاه تسرعان إلى الأديرة فيزداد تمزقه وتزداد حيرته. وكل مرة يرجع فيها من الدير يتصور الخدمة أنها فخ سقط فيه أو سجن وشقاء، والسبب أنه ابتدأ يبني برج حياته وفضائله وتقواه ليطل على الصحراء، واحتفظ بظهره للكنيسة المسكينة.

ليس هذا معناه أن لا يتثقف الراهب بكلمة الإنجيل كل يوم وبكل عمق وإخلاص، ولا أن يمتنع الكاهن وخادم الإنجيل أن يتربى تحت أقدام الآباء وتعاليمهم وعفتهم وزهدهم، ولكن **على الراهب أن يجعل من الكلمة نوراً للسيرة الرهبانية الزاهدة المتعففة؛ وعلى الكاهن أن يجعل من سيرة الآباء وزهدهم برهاناً لصدق الكلمة التي يخدمها** ويبشر بها، ومشجعاً له وللذين يجاهدون معه للشهادة في وسط العالم ضد العالم!

٢- نظرتان في الخدمة متلازمتان:

الأولى: نظرة الخادم نحو الله الذي يمده بالقوة للخدمة.

والثانية: نظرة الخادم نحو ضعفه الذي يكتشفه في نفسه كل يوم.

هاتان النظرتان ولو أنهما متعارضتان شكلاً، إلا أنهما منسجمتان انسجاماً كلياً، ونقول «كلياً» لأن الانسجام هنا هو في الواقع بين قوة الله وضعف الإنسان، فهو انسجام طبيعي ولاهوتي معاً؛ حتى أن الله نفسه يتطلب تلازمهما «لأن قوتي في الضعف تُكمَل» (٢كو ١٢: ٩). والذي

يكمل هنا هو قوة الله وليس ضعف الإنسان، حيث يظل الضعف ضعفاً كما هو!!

فالكاهن أو الخادم إن هو أكثر من النظر إلى ضعفه، وتغاضى بنوع من الخداع النفساني عن النظر إلى قوة الله التي يخدم بها ويخدم تحت سلطانها وتدبيرها، فإن توازنه يختل ويسقط تحت نفسه! وهذا يأتي بسبب صغر النفس، وذلك من عدم تجلي الإيمان في القلب على أساس عمل الدم الإلهي، وعدم ازدهار الرجاء في النفس على أساس القيامة التي أخذناها حقاً أبدياً لنا.

كذلك إذا أكثر الكاهن أو الخادم من النظر إلى قوة الله متغاضياً عن حقيقة ضعفه وخطاياه، فإنه يتجبر ويتصلف ويدَّعي الألوهة، حيث لا يعيده إلى موقعه الحقيقي إلا سقطة أو انكسار علني يكشف له حقيقة ضعفه!

على أننا نود لو نوضح أكثر، الفرق بين نظرة الخادم نحو الضعف الصحيح أو التواضع الصحي الذي لا يؤذي النفس ولا يسيء إلى الإيمان، الذي يزيد الخدمة قوة وكرامة ومجداً لحساب المسيح، وبين **نظرة الضعف اليائس أو التواضع المريض الذي تشمله الكآبة وصغر النفس[٢] الذي يلغي عمل الإيمان ويضعضع الخدمة، وينعكس على**

---

(٢) وهنا ينبغي أن نحذِّر كل إنسان من التمادي في اكتشاف عثراته وهفواته أو الاستغراق في فحص خطاياه وتفرعاتها والتهويل في اتهام نفسه بالخطايا الجسيمة، لأن ذلك ينبه اللاشعور ويزيد من ثقل الضمير، الأمر الذي ينتهي حتماً بخلل في التوازن العصبي والفكري، ويعرِّض الإنسان للسقوط في أعراض لأمراض عصبية يتعذَّر شفاؤها، بل ربما يستحيل ذلك.

أما المنهج المسيحي الروحاني الأصيل في مواجهة الخطايا فهو يعتمد أساساً على تأنيب الروح القدس لضمير الإنسان بدون افتعال: «ومتى جاء ذاك (الروح القدس) يبكت العالم على خطية» (يو

بقية الحاشية أسفل الصفحة التالية

الرعية فيثبط من همتها ويحط من شجاعتها!

والفرق بين الاثنين هام وخطير، فنظرة الضعف الحقيقي إلى أنفسنا لا تلغي الإحساس بقوة الله بل تزيدها فاعلية. أما نظرة الضعف اليائس النفساني، فإنها تلغي الإحساس بقوة الله ولا تعطيها فرصة للعمل!

أي أن الضعف والتواضع الحقيقي يزكيان عمل قوة الله في الخادم وفي الخدمة، وهذا يزيد الخدمة نجاحاً لحساب الله. أما الضعف والتواضع المريض فقد يزكي الإنسان أمام بعض الناس، ولكنه يفقده قوة الله فتنحط الخدمة وتنحط الروح المعنوية للرعية.

لذلك، ليس من صالح الخدمة أن يُظهر الكاهن أو الخادم ضعفه للرعية ويتغنى بضعفاته بمناسبة وغير مناسبة. **يكفي أن يكون الإنسان متضعاً بالعمل لا بالكلام**، فكل كاهن أو خادم يُظهر ضعفه لرعيته يخطئ خطأين:

الأول بكونه يستجدي بذلك عطفهم أو مديحهم،

والثاني بأنه يُحزنهم ويحط من ثقتهم بالله ويحطم من مَثلهم الحي الذي يقتدون به.

فالكاهن أو الخادم لا يكرز بنفسه حتى يكشف لهم ضعف نفسه، بل هو يكرز بالمسيح، فعليه بالضرورة أن يكشف لهم قوة المسيح التي بها يخدم والتي منها يستمدون إيمانهم وحياتهم وقوتهم!!

١٦: ٨). فالذي يريد أن يفتش على خطاياه، عليه أولاً أن يفتش في كلمة الله، فبقدر ما تزداد معرفتنا بالله تزداد معرفتنا بخطيئتنا.

٣- جيد أن تسقط تحت النير،
وليس جيداً أن تلقي النير عنك:

ما أروع الجندي الذي يسقط في الميدان، وجروحه تنـــزف ويده قابضة على السلاح!

إن جروحه تحكي قصة نضاله الشجاع، ويده المستميتة على السلاح تشهد بأمانته وشرف جنديته!

ولكن ميدان الخدمة الروحية أعلى بلا قياس؛ فالجندي لا يموت في الميدان إلا مرة واحدة، أما إذا تجندنا للمسيح «فإننا من أجلك نُمات كل النهار»!! (مز ٤٤ :٢٢، رو٨: ٣٦) «في الميتات مراراً كثيرة» (٢كو١١: ٢٣).

الكاهن أو الخادم قد نصَّب نفسه ذبيحة يوم نصَّبوه خادماً «قد حُسبنا مثل غنم للذبح» (مز٤٤: ٢٢). إذن فلا تستنكر السهام الحارقة المسمومة التي يرشقها العدو في جسدك وفكرك بلا هوادة، فهي وإن كانت تعمل للموت إلا أنها ستثمِّن بالحياة «لأننا نحن الأحياء نُسلَّم دائماً للموت من أجل يسوع، لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت» (٢كو٤: ١١).

فلا تفزع أيها الكاهن والخادم من جروحك ولا ترتعب من سطوة الحرب كمغلوب، فطالما يدك ماسكة بالحياة الأبدية فلن تُغلب! فقط لا تُرخِ يدك عن الإمساك بالرب، ولا يكفَّ فمك من الصراخ إليه، ولا تنظر قط إلى الوراء. فهو قادم حتماً، قادم لنجدتك. **ولا تنسَ قط أن رحمة الله وإشفاقه عليك وأنت واقع تحت نيره تئن من جروحك، لا تُقاس برحمته وأنت هارب من ثقل النير!**

٤- نير الخدمة رحمة وسخرة بآن واحد:

أولاً: رحمة، لأنه دعاك لتخدمه، فوراء دعوته حتماً قصة اختيار وحب «وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا الذي قواني أنه حسبني أميناً إذ جعلني للخدمة» (١تى١: ١٢). كما أن وراء الدعوة خطة تبرير أكيد بل تمجيد «الذين سبق فعيَّنهم فهؤلاء دعاهم أيضاً، والذين دعاهم فهؤلاء برَّرهم أيضاً، والذين برَّرهم فهؤلاء مجَّدهم أيضاً» (رو٨: ٣٠). **فالخدمة بهذا الحال دليل رحمة وطريق تبرير،** ليس أن الخادم يبرِّر نفسه ولا أن الناس يبررونه، بل الذي يبرره هو الله، فالله هو بر الخادم. أما الخادم فيظل غير مبرَّر في عيني ذاته وكلا شيء بالمرة! لذلك يكمل بولس الرسول الآية السالفة بقوله: «فماذا نقول لهذا: إن كان الله معنا فمن علينا؟» (رو٨: ٣١)، أي أن تبرير الخادم وقوته وخلاصه من الدينونة هي بسبب انضمامه إلى الله لخدمته، أو هي حالة ناتجة ومتوقفة على وجوده هو مع الله.

إذن فالخدمة هي في حقيقتها دعوة رحمة، وتبرير، وتبعية لله!

ثانياً: سُخرة، ولكنها سُخرة محبة، لأني أنا الذي أقبلتُ عليها مسروراً كرامة للذي دعاني وقبلتُها مقهوراً، مقهوراً من حبه ومن حبي، لأنه هو سبقني وقَبِلَ هذه السُّخرة نفسها عني حينما خدم خلاصي بدمه وغسل رجلي باتضاعه، وبيع كعبد بثلاثين من الفضة، وسُرَّ أن يموت ثمناً لحريتي. ولكني بعد أن سخَّرت نفسي لخدمة محبته ما عاد لي سلطان أن أستعفي أو أن أطلب أجرة!! «إذ الضرورة قد وُضعت عليَّ فويل لي إن كنت لا أبشر» (١كو٩: ١٦).

هكذا صارت الخدمة مزيجاً من رحمة وسُخرة، رحمة في بر يمنحه الله،

ولكن لا نستطيع أن نفتخر به، وسُخرة محبة ننجذب إليها، فلا نعود نستطيع أن نستعفي منها!!

٥- النير الخفيف الثقيل:

حينما نكون في وضعنا الروحي النشيط نرى نير الخدمة خفيفاً غاية الخفة، وحينما نتكاسل ونهمل ونتحلل من الواجبات نرتبك ويضيق الأفق الروحي أمامنا فنرتمي في أحضان العقل والتفكير وحينئذ يثقل علينا النير حتى لا يعود يُطاق!! ويتكرر الموقف وتتبادل الخفة مع الثقل على مدى الطريق، بقدر ما يتبادل النشاط الروحي مع الإهمال!

لا مناصَ يا آبائي وإخوتي من الإقرار والاعتراف بأن كل ثقل يتراءى لنا في نير الخدمة هو من صنع إهمالنا أو من صنع كبريائنا!

فلا تلوموا أحداً قط على الثقل الذي أصابكم والذي تحسونه بمرارة. ولكن ابحثوا عن المنفذ، فلا خلاص من ثقل النير إلا بمضاعفة الصلاة واللجوء إلى الاتضاع في الحال، حينئذ تنقشع الغمامة، وفي وسط الصلاة ومن على تراب الأرض يلمح الإنسان خفة النير من جديد ويفرح به ويرتضيه. **والنير هو النير لم يتغير ولم يتبدَّل!!**

٦- جعلتُك آية:

من وظائف الكاهن أو الخادم وظيفة يكاد لا يلمحها أحد أو يهتم بها مع أنها ذات أهمية كبيرة، وهي أن يستخدمه الله كمَثَل أو نموذج أو آية للشعب. وطبعاً العهد القديم مليء بهذه النماذج، ومن أعجب هذه النماذج، ما أوحى الله به لحزقيال النبي أن ينام على جنبه ثلاثمائة وتسعين يوماً، وربطه الله بالصبر والثبات ليتمم النبوة، على أن يأكل أثناءها خبزاً

نجساً. وكل ذلك ليكون آية ونبوة لسقوط إسرائيل تحت خطاياها النجسة هذه المدة بعينها، إنما بدل الأيام تكون سنيناً. ثم أمره أن يحلق شعر رأسه ولحيته، ويقسمه ويذريه، ويلقي ثُلْثه في النار كناية عن زوال رحمة الله وعنايته عن إسرائيل وتبديدهم في أقطار الأرض ووقوعهم تحت نار غضب الله!

ولكن في بولس الرسول نرى نموذجاً جديداً، فهو يقول عن نفسه: «لكنني لهذا رُحمتُ ليُظهر يسوع المسيح فيَّ أنا أولاً كل أناة **مثالاً** للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية» (١تى١: ١٦). وعلى هذا المنوال تعمل النعمة في كل كاهن مختار من الله وكل خادم ممتلئ من الروح القدس؛ إذ تجعل من شكله وكلامه وسيرته آية للشعب دون أن يدري أو يحس. إذ تُركِّز النعمة عملها فيه في ناحية من النواحي فتكشف مَسْكنته أو بساطته أو بكاءه أو عطفه أو حنانه أو طهارته أو حلمه أو بذله المتناهي أو تسليمه لحياته. والنعمة، لكي تُظهر ذلك فيه، تستخدم أحياناً نار الممحِّص والتجارب والأحزان التي تكون بمثابة النار التي نشعلها تحت البخور فتفيح رائحته.

والعجيب أنه في اللحظة التي يقرر فيها الكاهن أو الخادم أنه لم يعُدْ يصلح لشيء ولا لمزبلة، معتقداً أن التجارب التي أحاطت به هي بسبب خطاياه، ويظن أنها حتماً تخلية من الله، تكون النعمة قد أكملت خطتها والتحمت النار بالبخور وأفاحت رائحة المسيح التي فيه!! وهكذا ومن الصفة الضعيفة ذاتها التي يكرهها الخادم في نفسه، تخرج النعمة آية من آيات رحمة الله!

فلو انفتحت أذن الكاهن أو الخادم اليائس من خدمته بسبب ضعفه،

لتسمع رأي الله فيه، لسمعت الآتي: **وأنا من أجل هذا الضعف اخترتُك لتكون آية لرحمتي.**

٧- كفء وغير كفء معاً:

لا ينبغي للخادم أن يعتبر نفسه غير كفء للخدمة، كما عليه في نفس الوقت ألا يحس في نفسه أنه كفء من ذاته للخدمة. **فخلاص النفس البشرية ولو أنه ليس هو من عمل الإنسان، إلا أنه لا يتم إلا بواسطة إنسان!!** فالخادم يستحيل أن يعتبر أنه مخلِّص ولكنه هو في الواقع واسطة للخلاص.

وبولس الرسول يقول: «من هو - يا تُرى - كفءٌ لهذه الأمور»، أي من هو كفء لحياة الناس وموتهم؟ ثم يعود بعد ذلك ويقول: «ولكن لنا ثقة مثل هذه: أنكم أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدومة منا... بروح الله الحي... ليس أننا كُفَاة من أنفسنا أن نفتكر شيئاً كأنه من أنفسنا بل كفايتنا من الله، الذي جعلنا كفاة لأن نكون خدام عهد جديد» (٢كو٣: ٤، ٢، ٣، ٥، ٦)، علماً بأن ثقة الخادم الراسخة بكفاءته التي يمنحها له الله أولاً بأول، هي أهم وأعظم عوامل النجاح في الخدمة لتمجيد الله.

٨- المديح الحق... والمديح الباطل:

يوجد ثلاثة أنواع من المديح يتعرض لها الكاهن أو الكارز:

اثنان منها مشجوبان، وواحد ممدوح.

فالمديح الأول أن يمدح هو نفسه في ضمير نفسه، وهذا المديح

مشجوب لأنه يفضح الخدمة كلها، ويُظهرها أنها ليست لمجد الله ولكن لمجد الذات «ليس من مدح نفسه هو المزكّى بل من يمدحه الرب» (٢كو١٠: ١٨).

والمديح الثاني أن يمدحه الناس علناً بدون مشورة الله وإيحائه، وهذا المديح مشجوب أيضاً لأنه يسيء إلى الخدمة وينقل كرامتها ومجدها الواجب أن تُعطَى لله ويضيفه لحساب الخادم **فينضرُّ** الخادم **وتنضرُّ** الخدمة «الذي مدْحُه ليس من الناس بل من الله» (رو٢: ٢٩).

والمديح الثالث «هو من يمدحه الرب». ومدح الرب للإنسان الذي يعيش بأمانة ينطقه الله في قلوب أحبائه وسامعيه، فيحرك قلوبهم وضمائرهم لمدحه اعترافاً بفضل الله عليهم «غير سالكين في مكر ولا غاشّين كلمة الله بل بإظهار الحق مادحين أنفسنا **لدى ضمير كل إنسان قدَّام الله**» (٢كو٤: ٢). ويكون هذا المديح إمعاناً في تمجيد الله نفسه وإعلاناً عن عمله الذي تم فيهم. وفي هذا يقول بولس الرسول بمنتهى الوضوح: «وأما أنا فأقل شيء عندي أن يُحكم فيَّ منكم أو من يوم بشر. بل لست أحكم في نفسي أيضاً. فإني لست أشعر بشيء في ذاتي لكنني لست بذلك مبرَّراً. ولكن الذي يحكم فيَّ هو الرب. إذاً لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام ويُظهر آراء القلوب وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله» (١كو٤: ٣-٥). ثم يعود بولس الرسول ليحذِّر المخدومين من المديح الجزافي الذي يكون بدون إيحاء من الله قائلاً: «فهذا أيها الإخوة حوَّلتُه تشبيهاً إلى نفسي وإلى أبُلُّوس من أجلكم لكي تتعلموا فينا أن لا تفتكروا فوق ما هو مكتوب، كي لا ينتفخ أحد لأجل الواحد على الآخر» (١كو٤: ٦).

والخادم الذي يمدحه الله بالحق في قلوب الناس وضمائرهم لا يحس أبداً بمديح الناس له، بل يعتبره علامة على نجاح الله في استخدام ضعفه. ولا يرى أن ما قاله وما علَّم به يستحق عليه المديح مهما كان مؤثراً وناجحاً كموسى الذي لم يكن يرى نور وجه نفسه، بل كان يراه الناس ويرتعبون حتى أنه وضع برقعاً على وجهه لكي لا يرى الشعب مجده الزائل!! وكان هذا في الحقيقة رمزاً لنور وجه المسيح الذي ينبغي أن نراه كلنا الآن في الإنجيل وفي وجه كل من يقرأ الإنجيل ويخدمه، إنما بالرؤيا القلبية حيث النور الآن هو حق المسيح الذي يكشف الخطايا والنجاسة وخفايا الخزي.

إذن فكل خادم أمين ينظر إلى نور وجه المسيح الذي هو الحق الكائن في كلمة الحياة لابد أن يتحول إلى مثل هذا النور عينه، كما يقول بولس الرسول: «ولكن عندما يرجع إلى الرب يُرفَع البرقع... ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢كو٣: ١٦و١٨).

فكل مجد الخدمة والخدام هو هو بعينه مجد المسيح أولاً وآخراً: «لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كو٤: ٦).

٩- تحولات في طبيعة الخادم:

الذي يحمل نير الخدمة كمتخصص وكمكرَّس لها، لم يعد له ما لباقي الناس من حقوق الراحة الجسدية والاستمتاع بالخيرات الزمنية والمسرات الطبيعية. فالبقرة التي تحمل الناف (النير) وتُخصَّص للحرث باستمرار ولإدارة السواقي، لا تعود تحلب لبناً مثل باقي البقرات المستريحة طول

النهار في الحظيرة تأكل وتنام، بل يقل لبنها جداً وتنحني رقبتها وتهزل وتتحول عضلاتها إلى عضلات عاملة تناسب خدمتها، وبمضي المدة لا تعود تقبل ذكراً ولا تحمل ولا تلد!! ونفس هذه التحولات الوظيفية تتم بالنسبة لثور البقر أيضاً!

هكذا في بداية حمل النير يتململ الإنسان جداً بسبب حرمانه من كثير من الحقوق الطبيعية، ثم بعد مسيرة مناسبة تبتدئ تعزف نفسه عن هذه المسرات، وأخيراً يسمو الخادم فوقها ولا يعود يحس قط بالحرمان، بل بالعكس فإنه يحس بالبركة والعناية الإلهية وتعزيات الروح التي تفوق كل مسرات الدنيا. **وثقل نير الخدمة الإلهي كفيل بالصبر مع الأمانة أن يخلق تحولات جوهرية في طبيعة الإنسان ومزاجه!**

١٠- الموت والحياة:

من قوانين الخدمة الأساسية التي ينبغي أن لا تغيب عن فكر الخادم الذي حمل النير وسلم حياته مرة واحدة لله هو قانون أورده بولس الرسول في كلمتين بعد أن ذاقه وتمرن عليه وانتهى إلى تحقيقه «**إذن الموت يعمل فينا، ولكن الحياة فيكم**» (٢كو٤: ١٢). وفي موضع آخر أورده هكذا: «**أُنفق وأُنفَق من أجلكم**». ولكنه شرحه بوضوح في قوله «لأننا نحن الأحياءَ نسلَّم دائماً للموت من أجل يسوع لكي تُظهَر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢كو٤: ١١).

ومعنى هذا القول عميق وعظيم، وهو باختصار صورة تطبيقية لعملية الصلب التي جازها المسيح بإرادته عن **ضعف شاءه لنفسه وهو قوي**.

وقلنا إنه قانون أساسي في الخدمة لأن المسيح هو الذي سنَّ صيغته

وقام بتطبيقها في جسده وفي نفسه: «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتَمُت، فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتى بثمر كثير» (يو١٢: ٢٤). وقد لمح بولس الرسول هذا القانون، فقام بتفسيره لاهوتياً فقال: «إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذن ماتوا. وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كو٥: ١٤).

الخادم تنسحق نفسه ويذبل جسده أمام عينيه يوماً بعد يوم بسبب نير الخدمة الذي هو الصليب عينه. وعملية الموت التي يجوزها بإرادته من أسهار وأصوام وصلوات وتنسكات، والاهتمام الزائد بأمور الرعية والمخدومين، تمشي جنباً لجنب مع عملية الموت التي يجوزها رغماً عنه من أمراض وأعواز وضيقات ومكائد واضطهادات التي تبدو وكأن لا حل لها ولا بديل عنها.

ولكن هذا الموت بصورته المزدوجة الإرادية وغير الإرادية هو في حقيقته ليس موتاً جزافياً، بل هو موت للرب، موت صليبيٌّ (أي على مثال موت صليب المسيح)، ينبثق منه ومعه وبنفس درجاته وعمقه قيامة وحياة، لا في نفس الخادم فحسب بل وفي كل من كان يصلي عنهم ويتألم من أجلهم ويسهر لراحتهم ويصوم نيابة عنهم ويتوب ويتذلل باسمهم! فكما مات الرب وكان موته مجداً له وحياة لمن مات عنهم، هكذا كل من مات مع الرب حباً وكرامة لاسمه وبذلاً وفدية عن أولاده الخطاة!

١١- مختلين وعاقلين:

قانون أساسي آخر في الخدمة، إن سهينا عنه ثقل علينا النير وضاقت

أنفسنا فينا. وقد لخصه بولس الرسول هكذا: «لأننا إن صرنا مختلين فلله أو كنا عاقلين فلكم» (٢كو٥: ١٣). فالمناداة بالإنجيل لابد وأن تبدو لكثيرين أنها غير معقولة بل وغير عاقلة. فالإله المصلوب لا يفهمه ولا يستسيغه العائشون في الظلمة لأنهم لا يحسون بجسامة الخطيئة وفعلها المميت للنفس. كذلك فالطهارة شيء ينكره العالم لأنه لا يعرف مصدر قوتها، والصوم الكثير يستثقله المحبون لملذات الأطعمة، والمتشبثون بصحتهم ومزاجهم لا يرون أهميته وخطورته بالنسبة لأرواحهم لأنهم يعيشون حسب الجسد وليس حسب الروح. والحشمة في الملبس واللياقة في السلوك وفي الكلام يهاجمها الإباحيون السائرون وراء غرائزهم وميلهم لاستعراض أجسادهم، وكذلك التواضع الحقيقي والمسكنة غير المصطَنَعة التي بالروح صفة يمقتها المتعظمون بذواتهم الطامحون للمجد والشهرة.

وهكذا فخادم الإنجيل والكارز بوصايا الروح بقدر ما يكون أميناً ودقيقاً في المناداة بهذه الوصايا، كرامة لإلهه، بقدر ما يُذمُّ كمختل العقل ويُبغَض ويُنتقَد من الدنيويين والشهوانيين والحكماء حسب الجسد والعقلانيين الذين يتدبرون بمقتضى قوانين الصحة والطبيعة.

فإذا لم يقبل الخادم، منذ البداية، أن يكون محسوباً مختلاً في نظر هؤلاء جميعاً، كقضية مسلَّم بها، فإنه يقع حتماً في صراع داخلي مع نفسه. وخصوصاً إذا هو حاول أن يبدو عاقلاً لدى هؤلاء المستهترين والحكماء في أعين أنفسهم، **فإنه سيقع في الرياء والممالأة وإنكار القيم الروحية الخالصة لمصالحة القيم العقلية المادية.**

إذن فلا مفر أمام الخادم الأمين أن يقبل هذا الحكم الصارم من العالم،

لأنه إن كان مختلاً فلله ومن أجل الله.

وعلى نفس النمط تماماً، إن اعتُبر عاقلاً وحكيماً ورزيناً في نظر أولاد النور الطالبين وجه الله، فهو إنما يكون عاقلاً لهم وليس لنفسه، **لأن الله لا يمنح الخادم الحكمة الروحية ورزانة التعبير وبصيرة الخدمة لذات الخادم وإنما للآخرين: «كأن الله يعظ بنا»** (٢كو٥: ٢٠).

١٢- خطاة مُبـــرَّرون:

من المبادئ العظمى في حياة الخادم التي تفتح أمامه مجال الخدمة طولاً وعرضاً بضمير شجاع غير مضطرب، المبدأ الذي يتخذه إزاء موقفه من حياته الأولى خصوصاً إذا كانت مزدحمة بالخطايا والعثرات. فهو وإن كان يعرف نفسه تماماً مَنْ هو وكيف كان يعيش حسب أهواء الجسد، إلا أنه الآن أصبح في المسيح إنساناً آخر.

هنا نستعير من علم اللاهوت حقيقة إيمانية حية عاشها بولس الرسول حتى أعماق أعماقها، وهي أننا الآن بسبب المسيح معتبرون لدى الله أننا لسنا نحن أنفسنا الذين كنا بالأمس: «الأشياء العتيقة قد مضت» (٢كو٥: ١٧). فالمسيح بحبه الجبار الفعال وبجسده الإلهي المتغلغل في كياننا جمعنا وحصرنا في شخصه وفي حياته المقامة: «محبة المسيح تحصرنا» (٢كو٥: ١٤). لقد متنا مع المسيح لما مات المسيح عنا، وقمنا معه، ونحن الآن قائمون فيه «إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذن ماتوا» (٢كو٥: ١٤). فنحن الآن لسنا نعيش بأنفسنا ولا لأنفسنا الأولى القديمة «كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كو٥: ١٥). أنفسنا الأولى ماتت، والآن نحن بالمسيح أشخاص آخرون «هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كو٥: ١٧).

صفاتنا الأولى غير محسوبة، خطايانا الأولى غير محسوبة «غير حاسب لهم خطاياهم» (٢كو٥: ١٩).

إذن فنحن الآن كخدام غير ممسوكين بصفاتنا الميتة ولا منظورين أمام الله بأشكالنا الأولى المنتنة، لذلك أصبح لزاماً علينا أن نتعرف على شكلنا الجديد المخلوق بالروح حسب النعمة والحق الذي في المسيح «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة» (٢كو٥: ١٧).

فالآن نحن محسوبون أمام الآب السمائي أبراراً بسبب المسيح: «نحن بر الله فيه (أي في المسيح)» (٢كو٥: ٢١)، لأننا عَمَلُه ومفديوه وثمرة صليبه، وقد لبسناه روحياً فاختفت من أمام الله معالم شخصياتنا الأولى، وما نحياه الآن لا نحياه لأنفسنا نحن كأنه للجسد بل المسيح هو الذي يحيا الآن فينا بالروح، وغاية معيشتنا ليست الآن لأنفسنا بل للذي مات عنا وقام بهذه الروح وبهذا الإيمان المسيحي الحي.

وبهذه الحقيقة الإلهية المعاشة يستطيع الخادم أن يرفع عينه من النظر إلى نفسه الأولى ويُثبِّت قلبه وفكره وعينه في وجه المسيح وصفاته بعزم وإصرار، ولا يرتد، حتى يتغير بالروح إلى الإنسان الآخر إلى الصورة الجديدة، إلى شكل المسيح نفسه، من مجد إلى مجد!!

إذن فالخادم الذي يخدم المسيح لا يخدم بنفسه حاملاً وراءه ثقل جسده بماضيه المعثر أو بحاضره العاجز، بل هو ببرٍّ من المسيح يخدم، وببرٍّ من المسيح يتكلم، وببرٍّ من المسيح يعظ ويوبخ!! «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا **لنصير نحن بر الله فيه**» (٢كو٥: ٢١).

الفصل الثاني

في عثرات الخادم

المؤمن العادي إذا عثر في حياته وعجز أن يوفي حق شجاعة الإيمان بالمسيح وضريبة الملكوت التي قد تصل إلى الموت، فعثرته تكون محصورة في إطار مسئوليته الخاصة عن نفسه، أما الكاهن أو الكارز فعثرته تتجاوز حياته وتمتد لتحطم أركاناً كثيرة في الخدمة، لأنها تؤثر تأثيراً مباشراً وخطيراً على إيمان **الضعفاء** بل وعلى **زملائه** في النير والرسالة. وفي النهاية، يتعدى اللوم الواقع على الكارز ويمتد فتُلام الخدمة ذاتها بل ورب الخدمة أيضاً!

ونحن هنا لسنا بصدد العثرات الشخصية ذات المستوى الحطيط من محبة جمع المال وشهوة الغنى والرئاسة والترفع والكبرياء والغضب والكذب، أو الانصباب وراء نـــزوات الجسد من خمر وتدخين، وبقية الصفات المرذولة والسيرة المنحلة، فهذه ليست عثرات خادم أو كاهن بل هي عثرات إنسان لم يبلغ بعد قامة الموعوظين.

أما عثرات الخدمة التي نقصدها فهي **عثرات نوعية**، أي ذات صلة مباشرة بروح الخدمة وظروفها وطبيعتها. فحينما قال بولس الرسول «لسنا نجعل عثرة في شيء لئلا تُلام الخدمة»، بدأ يحدد بعد ذلك مصادر عثرات الخدمة وأنواعها محاولاً تلافيها واحدة فواحدة. ونحن هنا نعرض لها باختصار:

«ولسنا نجعل عثرة في شيء لئلا تلام الخدمة بل في كل شيء نُظهر أنفسنا كخدام الله في: صبر كثير، في شدائد، في ضرورات، في ضيقات.

في ضربات، في سجون، في اضطرابات، في أتعاب.

في أسهار، في أصوام، في طهارة، في علم.

في أناة، في لطف، في الروح القدس، في محبة بلا رياء.

في كلام الحق...» (**٢كو٦: ٣-٧**).

١- عثرة قلة الصبر:

«بل نُظهر أنفسنا كخدام الله في صبر كثير»:

فإذن، أول ما يُعثر الخدمة قلة صبر الخادم سواء بالنسبة للصعوبات التي تعترض العمل ذاته، أو بالنسبة لاستهتار المخدومين ومراوغة الرعية وعدم الإذعان للتعليم والتوبيخ.

هنا يكون عدم صبر الخادم فرصة لزعزعة الخدمة كلها، وإساءة مباشرة لإمكانية المناداة بالإنجيل عموماً، بل وضربة مسددة لقيمة الكرازة والإيمان، لأن قلة صبر الخادم تشكل بحد ذاتها حالة ضعف إيمان. فالملامة هنا تتعدى شخص الخادم وتبلغ إلى صميم عمل الكنيسة وقوتها. فأفضل ألف مرة أن يبقى الخادم في موقعه يواصل شهادته ليل نهار محتملاً التعب بأقصى صبر حتى الموت من أن يلقي بالنير ويهرب، مُعرِّضاً الخدمة للملامة وضعف الثقة.

وينبغي هنا أن لا يغيب عن بالنا أن هذه عثرة شائعة في الخدمة، وقد واجهها بولس الرسول مرات عديدة إنما بشجاعة وعناد وصلابة لا تُقهَر «فإننا لا نريد أيها الإخوة أن تجهلوا... ضيقتنا التي أصابتنا... **فإننا تثقلنا جداً فوق الطاقة** حتى أيسنا من الحياة أيضاً، **لكن** كان لنا في أنفسنا حكم الموت... لم يكن لجسدنا شيء من الراحة بل كنا مكتئبين في كل

شيء، من خارج خصومات، من داخل مخاوف، لكن الله الذي يُعزِّي المتضعين عزَّانا» (٢كو١: ٨، ٩، ٧: ٥، ٦). هنا تتضح لنا أهمية مطلقة في خبرة بولس الرسول في صبر الخدمة التي تتركز في كلمة «**كثير**»: في صبر «**كثير**».

٢- عثرة الجزع من الشدائد:

حمل نير الخدمة ليس مقصوراً على الكلام الهادئ والكرازة المفرحة والتعليم بالراحة، بل نير الخدمة هو أساساً حرب!! حرب ضد قوات الظلمة، لأن الخطاة والمستهترين والمتهاونين تُشدِّدهم أرواح مُضلَّة وتسيطر على أفكارهم قوات شريرة مخادعة وعنيدة.

فالخادم معرَّض دائماً أبداً أن يتواجه مع هذه القوات وجهاً لوجه، ومع فخاخها المنصوبة وضرباتها ونقمتها، تهيِّج عليه الأشرار وتثير ضده السلطات وتعرقل طرقه وتبث حوله الشكوك وتبلبل أفكار الناس من جهة نياته وكلماته.

إذن، فالشدائد لازمة من لوازم الخدمة باعتبار أن **الخدمة تتضمن فك قيود الخطاة من سلطان الشيطان، فهي عمل هجومي وعدائي بالنسبة لقوات الظلمة**. فإن خارت قوى الخادم وانهار واستسلم مغلوباً إزاء المحن والشدائد التي يرتبها العدو، وخصوصاً في بداية خدمته، مهما كانت الأسباب، فإنه يُعرِّي الخدمة ويفضحها.

فالخادم يلزمه بكل تأكيد، أن يتسلح بالاحتمال والقوة والعناد الصابر وعدم الجزع إزاء الشدائد ومكايد الشيطان حتى الموت!! وبولس الرسول يخاطب خُدام البشارة والمنادين بإنجيل السلام، محذراً ومشجعاً: «يا

إخوتي **تقووا في الرب وفي شدة قوته**، البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن **تثبتوا ضد مكائد** إبليس. فإن مصارعتنا ليست مع لحم ودم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات. من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن **تقاوموا في اليوم الشرير**. وبعد أن تكملوا كل هذا **أن تثبتوا. فاثبتوا** ممنطقين أحقاءكم بالحق ولابسين درع البر (بر المسيح)، **وحاذين أرجلكم باستعداد** إنجيل السلام. حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي به **تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير** الملتهبة، وخذوا خوذة الخلاص وسيف الروح الذي هو كلمة الله. مُصلِّين في الروح بكل صلاة وطلبة كل وقت ساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة...» (أفسس٦: ١٠-١٨).

٣- عثرة الفزع من الضرورات:

والضرورات التي يقصدها بولس الرسول تشمل ثلاثة أنواع:

١- الضرورات الناتجة من قسوة الطبيعة من حر وبرد ومطر وعواصف وأهوال الجبال والوحوش المفزعة.

٢- الضرورات الناتجة من عوز الأشياء اللازمة للجسد والحياة اليومية سواء لنفسه أو لأسرته أو لرعيته، والتي ينشأ عنها الجوع والعطش والبرد وعدم الراحة.

٣- الضرورات التي تنشأ من الوقوع في الأمراض والآلام.

هذه الضرورات بأنواعها تواجه الخادم كل يوم في رحلاته وسفرياته على مدى حياته، ولابد أن يصطدم بها جميعاً كحقيقة واقعة لا محالة، غير

أنها لا تأتي عليه جزافاً بل هي **بسماح من الله، توزن وزناً يتناسب مع خلاص الخادم وإكليله**، غير أن الشيطان يتفنن في انتخاب أنواعها **غير الملائمة** للإنسان، ويختار **أوقاتها المفاجئة** والخطرة بدهاء منقطع النظير وبطريقة لا تدعو إلى الشك أنها جزء من حرب علنية وسافرة.

فإذا ارتعب الخادم من مصادمة هذه الأهوال وفقد سلاح الصلاة الوحيد، **وابتدأ ينشغل بها محاولاً تفاديها بطرق غير مشروعة بالرشوة مثلاً أو بالتملق أو بالتهديد**، أو ابتدأ يتململ وينظر إلى الوراء نحو طريق الرجوع والهرب، يزيد العدو بسرعة من ضرباته وتخويفاته، ويرعب قلبه ليلقي أسلحته مرة واحدة ويهرب تاركاً وراءه ميدان الخدمة مكشوفاً ومفضوحاً!! مع أن هذه الضرورات والمفزعات بكل أنواعها لا تعدو أن تكون كأصوات المفرقعات التي لا تحوي رصاصاً، التي يمكن للإنسان أن يجابهها وجهاً لوجه فيكشف تفاهتها وانعدام قوتها.

فأهوال الطبيعة وأعواز الجسد وكافة الأمراض والآلام يستطيع روح الله القدوس أن يحوِّلها إلى وسائط أساسية وقوية لإنجاح الخدمة والكرازة وإظهار مجد الله، إذا استطاع الخادم أن يصمد أمامها ويقبلها بشكر، ويعبرها بابتسام حتى النهاية، **فالله دائماً يتمجد بصورة خاصة في الضرورات إنما في آخر هزيع من ليل التجارب الذي يبدو طويلاً.** وقصص أعمال الله في وسط الأعواز والضرورات كثيرة جداً ومشجعة للغاية.

ولكن أخطر سقطة يتردَّى فيها خادم الله هو اللجوء إلى المال والغنى لتأمين المستقبل: «وأما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة. لأننا لم ندخل العالم بشيء، وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء. فإن كان لنا

قوت وكسوة فلنكتفِ بهما. وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومُضرة تغرق الناس في العطب والهلاك. لأن **محبة المال أصل لكل الشرور الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة**» (١تى٦: ٦-١٠).

٤- عثرة الفشل في احتمال الضيقات:

والضيقة التي يعنيها بولس الرسول هي المأزق الذي يضيِّق على الإنسان من كل جهة، حيث يقع في مواقف أعلى وأكبر من احتماله وقدرته، سواء الجسدية أو العصبية أو الفكرية أو حتى الروحية، حيث يواجه الإنسان شبح الإخفاق الكامل يُطْبق عليه من كل جانب ويتلمس أية معونة من أي إنسان فلا يجد، حتى يفقد كل الثقة بنفسه وبكافة الاحتمالات الممكنة، فينحصر الإنسان في أضيق نطاق من التفكير والأمل ويواجه الفشل عياناً. **هنا صراع الإيمان، هنا صراع الرجاء، هنا التمسك بوعد الله!!** حيث يقف الإنسان أحرج مواقف الشهادة لله والأمانة للخدمة، حيث يلح الشيطان على الخادم أن يعلن فشله ويرتد، **مع أن معونة القوة الإلهية مستعدة ومتأهبة رهن ثباته، وانفتاح باب المَنفَذ الموعود به متوقف على قدرته في التمسك بالرجاء الحي في تحدي المستحيلات حتى النهاية، والخلاص الذي أعده الله للذين يجاهدون باسمه ينتظر بلوغ الإيمان أعلى قمته للمسير في الظلام!!**

فالذي ينبغي أن يعرفه الخادم منذ البدء، بل ويلزم أن يثق به ويتيقن منه تماماً، أن العدو يبدأ يجمع له منذ أول ساعة كافة الأدلة السلبية والنقط التي ينغلب فيها أولاً بأول ويحفظها له، ليقدِّمها في ساعة الضيقة حيث تبلغ الظلمة كثافتها العظمى ليدلل له من واقع حياته وسلوكه على

حتمية الفشل ومعقولية الهروب!

ولكن أيها الخادم، قف ثابتاً، واهدأ، وتمسك بالعناد الصابر حتى تعبر ساعة الظلمة ويكف هتاف الأشرار وحينئذ يتحقق لك انكسار العدو وتفرح ويعظم انتصارك بالذي أحببته وأحبك. واذكر في هذه اللحظات قول بولس الرسول: «لأن الله لم يعطنا روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح» (٢تي١: ٧).

٥- عثرة الانهيار تحت الضربات:

كان الرسل والكارزون قديماً يتعرضون فعلاً للضرب بالعصي أو بالسوط على جسدهم العاري، بقصد أن تنهار قوتهم تحت وطأة الضرب والجروح الموجعة، فتنهار نفوسهم من وقع الفضيحة، حتى ينكروا الإيمان ويرتدوا عن الخدمة والمناداة بالإنجيل وباسم يسوع. هذه صناعة الشيطان وأعوانه منذ البدء وقد حاولها مع المسيح نفسه في جثسيماني «**أضرب الراعي فتتبدد الرعية**»!!

ولكن الآن، غيَّر الشيطان أسلوب التعذيب ولكنه لم يغيِّر التعذيب، فالضربات هي هي ولكن بدل أن تكون بالعصي والسوط كفضيحة جسدية أصبحت بالاضطهاد والتشهير والامتهان كفضيحة نفسانية، مع التضييق والحرمان بقسوة من أبسط الحقوق، مما تتأذى له النفس أشد ألف مرة مما كان يتأذى له الجسد. والقصد واحد هو أن تنهار قوة الكارز وعزيمته تحت وطأة الضرب المتواصل والتعذيب النفسي فيتوقف، ويرتد تاركاً ميدان الخدمة نهباً للنقَّاد والشامتين ومسرحاً للشياطين.

ولكن الرسل قد نبَّهوا قلوبنا إلى هذه المكيدة عندما تنبهوا هم أولاً

بالنعمة، فلما احتجزوهم في المجمع وضربوهم بالسياط خرجوا فرحين ولم تنهار نفوسهم من الفضيحة والألم، عندما حسبوا ذلك أنه من أجل اسم المسيح!!

إذن **فكل فضيحة أو عار أو تشهير ينالنا ونحن حاملون نير المسيح، هو محسوب لنا كذبيحة نقدمها كرامة لاسم المسيح**، بل هو بالحقيقة شركة في ذبيحة المسيح عينها.

«اذكر يسوع المسيح... الذي فيه احتمل المشقات **حتى القيود كمذنب...**» (٢تي ٢: ٨، ٩).

«الذي جُعلتُ أنا له كارزاً ورسولاً ومعلماً للأمم. لهذا السبب أحتمل هذه الأمور أيضاً. **لكنني لست أخجل لأنني عالم بمن آمنت**، وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم. فلا تخجل بشهادة ربنا ولا بي أنا أسيره، **بل اشترك في احتمال المشقات لأجل الإنجيل** بحسب قوة الله» (٢تي١: ١١، ١٢، ٨).

٦- عثرة الهروب من هول السجون:

السجن يُعتبر وسيلة للتضييق على النفس حتى يختنق رجاء الإنسان ويستسلم أخيراً ويكف عن إصراره على المناداة بالإنجيل. ولكن قد تتم عملية السجن نفسانياً وليس مكانياً، فمحاصرة نشاط الخادم وكرازته ومراقبة أقواله وأعماله وإنتاجه ومنعه من الاتصال بأبنائه وتلاميذه ومريديه هو نوع حديث من السجون. فإذا رفض الخادم أن يتقبله ولم يرتضِ أن يعمل في حدوده وقيوده، ضاقت نفسه فيه وتمزقت روحه وتوترت أعصابه. وفي النهاية لا يمكن أن يفلت من التذمر والشكوى ما

ينتهي به إلى الذبول والانحصار وترك مجال الخدمة للمفسدين والعابثين.

والذي ينبغي أن ننتبه إليه أن السجن بكل أنواعه قرين الخدمة منذ أيام الرسل حتى اليوم، ولا مفر من قبول قيوده وسلاسله سواء المنظورة أو غير المنظورة، جسدية أو نفسانية أو عقلية، فهو إحدى الوسائل التي يُشْهرها العالم وكل من يعمل لحساب العالم ضد خدام الإنجيل والكرازة باسم المسيح.

كما ينبغي أن ننتبه غاية الانتباه إلى أن مجرد الاستسلام للشكوى أو التذمر أو القلق بسبب الإحساس بهذه القيود، هو كفيل أن يتدرج بالخادم إلى أن يوقعه في التمزق والثورة الداخلية التي تنتهي حتماً بنكران الخدمة والإساءة للاسم الكريم وإهانة معنى الكرازة بالصليب!!!

أيها الخادم تذكر قيود المسيح التي ارتضاها وسار تحت رباطها حتى إلى الصليب!!

وتذكر بولس الرسول، سفير السلاسل، الذي اعتبر ترحيله من سجن فلسطين إلى سجن روما وهو مقيد بالسلاسل أنه سفارة في صميم الخدمة لحساب المسيح، ولكنها سفارة في قيود. وما أحلاها وما أغلاها قيوداً، هذه التي قال عنها يوحنا ذهبي الفم مرة إنه لو خُيِّر أن يختار لنفسه موهبة من بين مواهب بولس الرسول المتعددة لاختار السلاسل!!

٧- عثرة التخاذل في الاضطرابات:

الاضطرابات إما مفتعلة أو طبيعية. فالشيطان قد يثير الشغب والهياج ضد الخادم، كما حدث لبولس الرسول في أفسس حينما قامت المدينة

كلها بزعامة صانعي تماثيل أرطاميس تصرخ وتذري التراب في الهواء ضد بولس الذي جاء ليفسد عليهم أرباحهم ويحط من شأن عبادتهم. والعدو يُحكم مثل هذه الثورات ويتصاعد بها حتى الذروة ليخيف قلب الخادم ويرعبه ويوقعه في التخاذل والهروب.

وقد تكون الاضطربات طبيعية بسبب أيام الحروب أو الثورات أو المجاعات أو الأوبئة، وفيها يضغط العدو على قلب الخادم وفكره حتى ينطوي تحت هذه المؤثرات، فيكف عن النطق والخدمة ويلوذ بالفرار، أو ينتهز الفرص ليؤمِّن لنفسه ولذويه السلامة، فيترك الرعية ويهرب معرِّضاً إياها للتشتت والتمزق وهي أحوج ما تكون إلى من يقودها في هذا الإعصار ويعبر بها مناطق الخطر كقطيع موحد متآزر يصلي معهم وبهم ويتضرع إلى أن يجوز الاضطراب. **في هذه الأوقات العصيبة، يتبين الراعي الصالح بالحق من الراعي الأجير** حيث هروب الراعي خوفاً على حياته معناه هلاك كل الرعية!!

٨- عثرة الراحة في وقت ينبغي فيه التعب:

كما يلتزم الزارع بأوقات العمل المتواصل السريع الذي لا يعرف الراحة أو الكسل، سواء التي يحرث فيها أرضه للزرع قبل حلول فصل المطر، أو التي يضع فيها الأسمدة، أو التي يحصد فيها الثمر، بحيث لو توانى أو تكاسل، ضاع عليه الموسم أو انضرَّ زرعه أو تلف حصيده، فيقف حقله وسط الحقول عارياً كئيباً يقص على الرائح والغادي قصة كسل رخيص أو عجز محزن، أما هو فلا يجد ما يجيب به على ملامة الناس ولا يجد ما يوفي به حاجته.

هكذا تماماً تقف الكنيسة الخالية من المؤمنين والمصلين في أيام الآحاد

ومواسم الصوم والصلاة، تحكي قصة تواني رعاتها وخدامها الذين تركوا الخدمة الروحية، وذهبوا ليحرثوا في البحر ليحصدوا الريح. ويا للأسف ويا للملامة. وما هذه الصور المحزنة الكئيبة إلا مقدمة لما سيتم أمام منبر المسيح حينما يقف أصحاب المواهب والمؤتمنين على الأسرار الذين طمروا الموهبة في وحل المال أو الإهمال.

إن راحة الخادم الحقيقية محفوظة له في السموات مع سيده الذي كان ينبغي أن يتألم أولاً ثم يدخل إلى راحته. **فالراحة الحقيقية لن نجدها هنا**، بل هي مذخورة لنا مع المسيح بكيل فائض في السموات. كما يقول بولس الرسول: «ولمن أقسم لن يدخلوا راحته إلا للذين لم يطيعوا، فلنخف أنه مع بقاء وعد بالدخول إلى راحته يُرى أحد منكم أنه قد خاب منه... فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة لئلا يسقط أحد في عبرة العصيان هذه عينها» (عب٣: ١٨و٤: ١، ١١).

إذن فهنا زمان التعب، كما يقول بولس الرسول: «ولم يكن لجسدنا شيء من الراحة» (٢كو٧: ٥). ولكنه تعب مقدس وثمين، تعب يثمر راحة وخلاصاً أبدياً. **هذا هو التعب الذي سيجعل وجه الراعي والخادم يضيء بالمجد أمام الله**: «والفاهمون يضيئون كضياء الجَلَد، والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» (دا١٢: ٣).

٩- عثرة النوم في السهر:

كم كان مؤلماً على قلب المسيح أن ينام التلاميذ في ساعة من أشد ساعات المسيح حاجة إلى اليقظة والسهر، ثلاث مرات وهو يحاول أن يوقظهم!! مع أنه سبق ونبه أذهانهم أن اسهروا اسهروا وصلوا لكي لا تدخلوا في تجربة! كما سبق ونبه قلوبنا في مثل رب البيت الساهر **أن**

الشيطان ينتهز فرصة الغفلة العقلية والفكرية، فيتسلل وينقب بيت الإنسان الروحي ويسرق وينهب ويبدد كل ما اختزنه الإنسان بعرق الصلاة ودموع التوبة.

الذئب اللئيم لا يهجم على قطيع الراعي الساهر اليقظان ولكنه يجول بين القطعان يفتش عن راعٍ افترش الأرض وغطَّ في نوم عميق، فيجد الفرصة مواتية ليهجم على الغنم ويمزقها.

والكاهن الساهر لا يدع كنيسته تُنقب، ولا يفرط في خروف واحد ولا في نعجة صغيرة. إنه يضع حياته مقابل أصغر غنمة!! إنه يغامر بحياته كلها لأنه يعلم أن حياته محفوظة ومؤمَّن عليها في السموات. فلو ضيَّع حياته هنا من أجل المسيح فسيأخذها منه هناك مكللة بالمجد، ولكنه إذا غطى وجهه ونام وضحى بالغنمة ليخلِّص حياته وينجو بنفسه من الخطر، فقد أهلك روحه وأسلمها لدينونة بلا رحمة وألبسها العار والخزي الأبدي.

فالكاهن أو الخادم هو حارس غنم قبل أن يكون واعظاً أو معلماً!! ومن يده سيُطلب الضائع، وعليه دم القتيل!!

١٠- عثرة التحلل من الأصوام:

البطن المملوة بالأطعمة المزدحمة بالمشتهيات لا تلد بنين روحيين.

الصوم والصلاة هما آلام المخاض الروحاني للراعي، اللذين بواسطتهما يتصوَّر المسيح في أولاده الجدد «يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتصور المسيح فيكم... في تعب وكد، في أسهار مراراً كثيرة، في جوع وعطش، في أصوام مراراً كثيرة» (غل٤: ١٩؛ ٢كو١١: ٢٧).

إذا زيَّن الإنسان هيكل قلبه بالصوم والصلاة، تأهَّل لسكنى الروح القدس، وحينئذ تفقد البطن سلطانها على الإنسان، وإذا زيَّن بطنه سكنتها الشهوة وتسلطت عليها كإله «الذين إلههم بطنهم» (في٣: ١٩).

الراعي أو الخادم الذي لا يمارس الأصوام والتقشفات بحدودها المقررة، عن نفسه وعن خدمته ورعيته، فإنه يسقط من مرتبته الروحية ولا يستطيع أن يبقى أميناً لتدبيرات الكنيسة وقوانينها، بل تجده دائم التبرم من أنظمة الكنيسة ويهاجم تقليداتها وبالأخص من جهة أصوامها. وهذا الصنف من المتذمرين والمتململين قديم في الكنيسة: «وأطلب إليكم أيها الإخوة أن تلاحظوا الذين يصنعون الشقاقات والعثرات خلافاً للتعليم الذي تعلمتموه، وأعرضوا عنهم لأن **مثل هؤلاء لا يخدمون ربنا يسوع المسيح بل بطونهم**» (رو١٦: ١٧، ١٨).

ومعلوم منذ البدء ومستقر لدى الآباء بالخبرة النسكية التي لا تحتمل الشك، أنك إذا أردت أن تبتدئ بأية فضيلة أو أي عمل روحاني أو أي خدمة لائقة بالرب فابتدئ بالصوم!

فإذا تحلل الراعي أو الخادم من الصوم كدستور دائم له ولرعيته، فإنه دون أن يدري ودون أن يلاحظ، تتحول خدمته الروحية إلى مجرد خدمة اجتماعية، تنحل بالتدريج لتتحول في النهاية إلى نشاطات إنسانية، يعمها التهريج والمظاهر والحفلات، ولا يبقى لها من الروح إلا الخطب والألفاظ وبعض الآيات من الإنجيل تُحشر حشراً لإسكات «المتطفلين»!

١١- عثرة الطهارة:

ما أحلى رائحتك أيها الكاهن الذي فطم نفسه عن الشهوة[٣]،

تفوح منك يا أخي رائحة البتول بل رائحة المسيح الزكية لله،

كل من يتنسم رائحتك يحس بالطهارة وقوة الخلود تسري في أحشائه،

آه من منظر عينيك الذابلتين المرتسم عليهما وجه العذراء، بل وجه الله،

بريق الخلود يشع منهما فيبدد الشهوة من قلوب ناظريك،

لماذا تتكلم كثيراً أيها الطاهر البتول؟ إن منظرك عظة، ووقوفك رجاء، وجلوسك سلام وابتسامتك بهجة، ودموعك تحل الخطية من الأعضاء!!

انظر يا أخي أن لا تخور في جهادك، فإكليلك يتلألأ فوق رأسك محمولاً على أيدي ملاك ومكتوب عليه: هنا صبر القديسين!!

أنت لست وحدك، معك مجاهدون يؤازرونك بالدموع. وتنهُّدك

---

(٣) من تقاليد الكهنوت الموروثة - عرفياً - في الكنيسة التي ظلت سارية إلى عهد قريب جداً، وربما لا يزال كثيرون يحافظون عليها حتى وقتنا الحاضر، أن الكاهن الذي ربى أولاده ودُعي للكهنوت، يكف نهائياً عن مباشراته الجنسية.

وإليك تقرير من المؤرخ سقراط:

[في الشرق، كل الكهنة وحتى الأساقفة أنفسهم يتعففون عن زوجاتهم. ولكن ذلك يفعلونه بمحض اختيارهم، إذ ليس هناك أي قانون يلزمهم بذلك كضرورة. إذ أنه كان بينهم أساقفة كثيرون الذين كان لهم أطفال من زوجاتهم الشرعيات خلال فترة أسقفياتهم.]

Socrates, *Hist. Eccl.*, v. 22.

تضج له الملائكة في السموات، آلامك محبوبة وأنينك نغم يلذذ أرواح الأبرار.

تقوَّ وتشدد ليتقوى بك المنتظرون الخلاص علانية.

حينما ربط المسيح حالة العين بالجسد كله قائلاً «إن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيِّراً» (مت٦: ٢٢)، أوضح لنا من أين ينبغي للراعي أو الخادم أن يبدأ جهاده مع نفسه ويلزم طهارته حرصاً على طهارة الخدمة. فالعين إما تنصبغ بدم المسيح فتغتسل وتتطهر وتتقدس فيشع منها نور المسيح، وحينئذ يصبح العقل والجسد جميعاً هيكلاً منيراً للروح القدس لا خوف منه ولا خوف عليه، وإما تنصبغ العين بالشهوة فيصبح الجسد منقاداً للشيطان لا في شهوات نجسة وحسب بل وفي كل خطية وطموح واستهزاء وصخب ويصبح خطراً في كل وقت وعلى كل بيت! ويصبح للكاهن وللخادم قدرة أن يسلب الأجواء رزانتها ويحط من مستوى العفة كلما نظر وكلما ضحك.

الكاهن الذي جرح عفة عينيه لا يملك ولا يستطيع أن يكون رقيباً على قطيعه، تتغامز عليه غنماته وتتعاهد التقيات منهن أن يقمن بالرقابة عليه والصلاة والصوم من أجله!!

آه، يا حسرة على الراعي الذي فقد عفته، ألا يكون قد فقد وظيفته؟

خطايا كل الناس تتبعهم، أما خطايا الكاهن والخادم فتتقدمه.

فجسامة الخطية تتعاظم بقدر جسامة الخدمة، ورائحة النجاسة لا تخفيها رائحة البخور والعطور.

وعين الزاني مرسوم عليها الضحية تحكي مأساة دينونة رهيبة آتية!!!

- «(عظ) العجائز **كأمهات** والحدثات **كأخوات بكل طهارة**» (١تي٥: ١).
- «**احفظ نفسك طاهراً**» (١تي ٥: ٢٢).

١٢- عثرة العلم:

ليس عيباً على الكاهن أو الخادم أن يكون غير ملم بأصول العلوم الطبيعية من طب وهندسة وفلك، ولو أن مدرسة الإسكندرية اللاهوتية كانت تعتني أيضاً بهذه العلوم قديماً، ولكن عار على الكاهن أو الخادم أن يكون جاهلاً بعلوم الكنيسة. فكيف يوصِّل رسالة الإيمان والعقيدة السليمة بغيرة وعزيمة وإخلاص وهو لم يدرس تاريخ الكنيسة، ولم يتعرف على نضالها الطويل المضني للحفاظ على سلامة العقيدة الإيمانية ضد التعاليم المضلة والخاطئة؟

فلو عرفنا أن **كل كلمة وردت في قانون الإيمان تحمل ذكرى جهاد وعرق ودم وأسماء شهداء ومعترفين ومعارك إيمانية دامت سنين وقرون**، لاستطعنا أن ندرك أن قانون الإيمان مرتبط بتاريخ الكنيسة وأن لا غنى إطلاقاً للإيمان عن الدراسة والسهر والتحصيل!!

وكذلك **شرح الكتاب المقدس بالتالي مرتبط بالعقيدة** ويتوقف على نوع المدرسة الفكرية التي يتثقف بها الكارز يومياً. فإذا لم يبنِ الكاهن أو الخادم معرفته وفهمه كل يوم على دراسة دائمة للأصول الآبائية السليمة ويكون أساسه اللاهوتي راسخاً على دقائق العقيدة يتصحح به وينمو كل يوم، فهو لن يستطيع أن يتلمذ شعبه للحق ولن يبني جيلاً على الإيمان والعقيدة السليمة.

إهمال الكاهن والكارز للدراسات الآبائية أو جهله بها كفيل على مدى الزمن بتكوين فاصل كبير وخطير يفصل الرعية عن تراث الكنيسة الفكري التقليدي، فيشب الجيل غير مستسيغ لترتيبات الكنيسة وتقليدها، كثير النقد لها بسبب جهله بأصولها الروحية.

- «اعكف على القراءة... لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك، لأنك إذا فعلت هذا تخلِّص نفسك والذين يسمعونك أيضاً» (١تي٤: ١٣، ١٦).

١٣- عثرة عدم اتساع القلب وطول الأناة:

طول الأناة التي يطلبها بولس الرسول هنا للخادم، هي طول الروح أو طول النَفَس وكأن الخادم يجري في ميدان طويل، **وهي صفة لا يمكن أن يحصل عليها الكاهن أو الخادم إلا إذا اعتبر نفسه يركض كمسخَّر لخدمة أولاد سيده، لا يملك أن يمتنع عن خدمتهم لأي سبب من الأسباب.** هذا يحدث عندما يتنازل الكاهن عن إحساسه بذاته وإحساسه بحريته الشخصية في الخدمة، ويتيقن أنه يعمل تحت سلطان سيده المسيح، وحينئذ يبتدئ **يحصل على طول الروح ويتأنى على الخطاة والمستهترين والمسيئين كمكلَّف ومأمور بذلك،** ولا يقطع الأمل قط من إنسان ما حتى إلى لحظة الموت. لأن ذلك معناه قطع الأمل من نفسه أيضاً. وهكذا يظل يشعر أنه طالما الوقت يُدعى الوقت، فباب التوبة مفتوح، وإكليل الخلاص قائم ومستعد حتى لأشر الخطاة.

أما **إذا فقد الكاهن أو الخادم طول أناته، فمعناه أنه ارتد إلى ذاته وتمسك بسلطان نفسه طارحاً عنه عبودية الخدمة الشريفة التي تحت سلطان السيد المسيح.** فيبدأ يتصارع مع الخطاة لا كأولاد لسيده المسيح

بل كعبيد له، حيث لا ينتقم من عصيانهم لطاعة المسيح بل ينتقم من عصيانهم لكبريائه المجروحة. فتتحوَّل الخدمة الروحية إلى نقمة ذاتية، والبذل يتحول إلى تبذُّل، والمسكنة بالروح اللائقة بخدام الصليب تتحول إلى تهديد ووعيد.

وليس الكاهن الذي ينـــزوي ويترك الخدمة بسبب ضيق نفسه من خطايا المخدومين واستهتارهم بأقل خطراً من الذي يستبد بهم وينتقم لكرامته منهم، والذي يتخلى عن الرعية إنما هو بمثابة من يسلمها للشيطان.

لذلك فلا غنى قط عن طول الأناة، ولا سبيل إلى طول الأناة إلا بقبول الخدمة كسُخرة روحانية لا نملك الاستعفاء منها، ولا نملك السيادة عليها!!

١٤- عثرة انعدام اللطف:

يرى بولس الرسول أن قمة لطف الله معنا إنما تتركز لا في خلاصنا من الخطية بسفك دم ابنه، بل في تماديه فوق ذلك بمنحنا أن نجلس معه في السماويات. لأن الصفح والغفران إنما يقعان تحت باب الرحمة، ولكن الجلوس معه في السماء فهذا هو عين اللطف الفائق!! «أقامنا معه **وأجلسنا معه** في السماويات في المسيح يسوع **ليُظهر في الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف** علينا في المسيح يسوع» (أف٢: ٦، ٧).

والمسيح أيضاً بهذا المعنى كان لطيفاً غاية اللطف لأنه لم يكتف برسالة الصليب والآلام وحسب، بل كان **يجلس مع** الخطاة والفقراء والمساكين ويأكل معهم!! فهو بذلك حدد لنا معنى من معاني الخدمة غاية في الأهمية، لا تقِل عن الصليب في حد ذاته. **فملاطفة نفوس الخطاة**

والمساكين والمرضى جزء لا يتجزأ من منهج الخلاص، وأساس نبني عليه الإيمان بشخص المسيح. **فلطف المسيح على الخطاة يستحيل أن ننقل صورته لهم إلا بلطفنا عليهم**، كذلك لطف المسيح علينا إن لم نمنحه نحن أيضاً للآخرين يتوقف منا وينحصر عنا.

على أنه يستحيل أن يوهب لكاهن أو خادم نصيب في الجلوس مع المسيح في ملكوته وهو لم يعتنِ هنا أن يجلس على مائدة الفقير أو يدعو المساكين والبؤساء للجلوس معه. لذلك نجد المسيح يربط ربطاً قوياً مباشراً بين زيارتنا للمرضى والمسجونين وملاطفتهم، وبين استقباله لنا في ملكوته على نفس المستوى.

فإذا خلت خدمة الكاهن أو الخادم من أعمال اللطف والإشفاق والحنو الصادق على الخطاة والمساكين والبؤساء، تكون قد خلت من أجمل ملامح صورة المسيح نفسه!!

١٥- عثرة الرياء في المحبة:

الخدمة مهما بلغت قوتها وغيرتها وفعاليتها، إذا خلت دوافعها من عنصر المحبة الصادقة نحو المخدومين، فإنها تفقد معناها وجوهرها الإلهي، فبحسب تقرير بولس الرسول في رسالته الأولى إلى كورنثوس نجد أنه ولو أُعطى الخادم التكلم لا بألسنة الناس فقط بل وحتى بألسنة الملائكة وكانت خدمته خالية من المحبة الصادقة لمن يخدمهم، فإن خدمته لا تتعدى في منفعتها رنين الأجراس الكبيرة في أعلى برج الكنيسة أو ضرب الدفوف في أيدي المرنمين أمام الهيكل، **شيئاً يُسمع ويذهب مع الريح!**

كما أنه لو أُعطى للخادم كل النبوة وكشف الأسرار وقوة إيمان مقتدر حتى على نقل الجبال، وكان الخادم فاقداً لعنصر المحبة الصادقة نحو

الذين يخدمهم ويتنبأ لهم ويعلمهم، فإن خدمته لا تعود تساوي شيئاً. بل ولو أُعطى للخادم من الغيرة ما يكفي لكي يهب الذين يخدمهم كل أمواله ويبذل جسده من أجلهم حتى يحترق، وكانت خدمته لهم خالية من المحبة الصادقة، فهو لن ينتفع من خدمته شيئاً!!

وهكذا يتضح لنا جداً أن **عنصر المحبة الصادقة نحو المخدومين، هو روح الخدمة** الأساسي وهو قوتها ومصدر حرارتها الذي منه يستمد الخادم نشاطه وعلى أساسه يكافأ.

على أن **أي رياء في المحبة نحو المخدومين كفيل بأن يطوِّح بالخدمة كلها ويجعلها بلا ثمر** وبلا مكافأة، لأن إهانة المحبة إهانة للخدمة.

فالذي ينبغي أن ننتبه له غاية الانتباه هو أن الخدمة الروحية ليست واجباً وحسب ولا مجرد رسالة ولا مهمة رسمية، ولكنها **واجب محبة، ورسالة محبة، ومهمة محبة، وسُخرة محبة**، لم نقبلها إلا بسبب المحبة التي أحبنا بها المسيح أولاً فأسرنا واستعبدنا للطف محبته!! **فنحن نخدم الآخرين لأننا أسرى محبة المسيح**، وقد استعبدتنا محبته لنخدم بها وتخدم بنا، ونحن رضينا بهذه العبودية الرابحة فاستعبدنا أنفسنا لخدمة الآخرين كرامة لحبه: «فإننا لسنا نكرز بأنفسنا بل بيسوع المسيح رباً، ولكن بأنفسنا عبيداً لكم من أجل يسوع» (٢كو٤: ٥).

أما أسرى المحبة الذين استعبدوا أنفسهم لخدمة الآخرين فلن يهمهم على الإطلاق أن ينالوا حباً من الآخرين بالقدر الذي يحبونهم به أو لا ينالوا، لأن **المحبة الإلهية المنسكبة في قلوبهم من نحو المخدومين تفيض عليهم من فوق ولا تستمد حرارتها من الناس الذين يخدمونهم ولا من ظروف خدمتهم**، وفي ذلك يقطع بولس الرسول بكل يقين وارتياح

قائلاً: «وأما أنا فبكل سرور أُنفق وأُنفَق لأجل أنفسكم، وإن كنت كلما أحبكم أكثر أُحَبُّ أقل، **فليكن**» (٢كو١٢: ١٥و١٦).

١٦- عثرة الكلام المنافي للحق:

الكاهن أو الكارز لا ينطق كلاماً من نفسه بل يتكلم بما يقوله الله في قلبه حقاً، وما يسمعه ويعرفه منه بيقين في مخدعه وصلاته، لا عن ادعاء وتزييف كما يحاول بعض الخدام أن يقلدوا كلام أولاد الله كالأنبياء الكذبة.

هذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان، فكل من يرسله الله ليتكلم باسم المسيح فهو يتكلم بفم المسيح، ويخدم بقوة المسيح ويفكر بفكر المسيح!

ليس شيء ما يُدعى حقاً في ذاته، لا قول ولا فكر ولا عمل، ولكن الحق هو الله في ذاته، وكل ما يصدر عن الله أو من الله فهو حق بالضرورة طالما هو كائن في الله غير منفصل عنه. لذلك فالمسيح هو الحق الكامل لأنه كلمة الله أو هو الله المستعلن لنا قولاً وفكراً وعملاً. فكل من كان في المسيح يسوع يعيش ويفكر ويتكلم به، فهو بالحق يعيش وبالحق يفكر وبالحق يتكلم، كأنه واقف أمام الله يكلم الله. هذا يوضحه بولس الرسول بيقين قائلاً: **لأننا لسنا كالكثيرين غاشين كلمة الله**، لكن كما من إخلاص بل كما **من الله نتكلم أمام الله** في المسيح» (٢كو٢: ١٧).

فالخادم الذي لا يتكلم بالحق روحياً أو يتحاشى أن يشهد للحق وهو يعرفه، هو بالحقيقة لا يخدم المسيح! ربما يخدم نفسه، أو ربما يخدم آخر، بل ربما يكون يخدم الشيطان دون أن يدري. **هذه ليست عثرة في الخدمة فحسب بل هي خدمة العثرة ذاتها!!** هنا تحوُّل خطير من معسكر

النور إلى معسكر الظلمة.

قد يتوهم الخادم أن قول الحقيقة أو الشهادة للحق قد يضر بمصلحة الخدمة، هذا وهمٌ وقصرُ نظر. فالتعليم بالحق لا يمكن أن يُعثر إلا غير المحبين للحق، غير الثابتين في الله. فالمسيح تكلم بالحق وشهد للحق ولم يَعثر فيه إلا المرفوضون!

ليس من الأمور السهلة أن يتكلم الخادم بالحق، لأن ثمن النطق بالحق ربما قد يصل إلى الموت. ولكن ليس الخادم في ذلك مختاراً، لأنه إذا لم ينطق بالحق فإنه يُحسب ميتاً من الآن حقاً ويقيناً!!

والكاهن أو الخادم ينطق بالحق لأنه يشعر أنه واقف أمام الله يتكلم باسم الله، فهو مقيد لا يستطيع أن ينطق إلا الحق كما يسمعه ويراه.

«إن كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا، لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا» (أع٤: ١٩و٢٠).

الفصل الثالث

الضرائب المستحقة على الخادم

للخدمة مجد، وللخدمة كرامة، فاسمها هنا على الأرض لدى الأتقياء وعشاق الإنجيل شيء محبوب ولذيذ يسلب القلب ويستهوي الإرادة.

فخادم الإنجيل سواء بزيِّه الرسمي الملائكي، أو بشكله العلماني البسيط، يتحرك بيننا كرسول رب الجنود تفوح منه رائحة المسيح أينما حل، كرامته تفوق كل كرامة على الأرض. فتيجان الملوك تنحني وتخضع وتسجد تحت اليد الحاملة الصليب. والإنجيل يحبذ هذه الكرامة ويطالبنا بها «أما الشيوخ (الكهنة) المدبِّرون (الإيغومانسيون) حسناً فليُحسبوا أهلاً لكرامة مضاعفة **ولا سيما الذين يتعبون في الكلمة والتعليم**» (١تى٥: ١٧). أما في السماء فتأخذ رتبة خدام المسيح أَوَج كرامتها ومجدها الفائق في ملكوت الله: «أنتم الذين ثبتـــوا معي في تجاربي وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً» (لو٢٢: ٢٨و٢٩).

ولكن ليس أحد ينال هذه الكرامة المضاعفة مجاناً، فإزاء المجد الذي ينتظر الخادم المجاهد الأمين ينبغي أن يدفع ضرائب باهظة في شكلها ومظهرها، فالعالم يفرض عقوبات وجزاءات وتأديبات مميتة على الذين يتحدُّونه وينكرون أمجاده الكاذبة ويستهينون بشهواته ولَهْوه ومسراته الجسدية والنفسانية. أما خدام البر والكارزون بالإنجيل فتُفرض عليهم ضرائب أثقل وأشد بسبب تزعُّمهم في فضح أكاذيب رئيس هذا العالم، وإثبات بطلان شهواته ومسراته وتسلياته، وبسبب اجترائهم على كشف خدعة الموت المندسَّة في صميم الخطيئة التي هي رأس مال الشيطان،

ولمداومتهم على تحذير الناس من الحرمان الأبدي الذي ينتظرهم من جهة الحياة مع الله بسبب مجاراتهم لآراء الأشرار.

فبقدر ما يعمل الخادم الأمين في تخليص الناس من الهلاك المنصوب أمامهم وإفساد خطط الشيطان، بقدر ما ينتقم منه رئيس هذا العالم.

لذلك فضريبة المسيحي الذي ينجو بنفسه نوع، وضريبة الذي يجول كل يوم يبحث عن السائرين في طريق الموت والهلاك الأبدي ويردهم إلى حضن الله نوع آخر. لذلك إذا أردنا أن نقارن خدمة بخدمة، أو نميز بين خادم أمين وخادم أمين آخر، فلا وسيلة لنا لمعرفة مقياس نقيس به قامات الخدام إلا بانتباهنا لنوع الضرائب التي يفرضها العالم على الخادم الأمين. فثقل الضريبة يكشف عن مدى نشاط الخادم وخطورته في نظر الشيطان، وهذا المبدأ نجده واضحاً في قول القديس بولس الرسول: «أهُمْ خدام المسيح؟ أقول كمختل العقل فأنا أفضل: في الأتعاب أكثر في الضربات أوفر، في السجون أكثر» (٢كو١١: ٢٣).

وضرائب الخدمة شخصية ونوعية. فالشخصية هي التي يُنتجها الشيطان لتصيب الخادم في شخصه، كمحاولة لتعطيل الخدمة كلها جملة واحدة، كأن يصاب بمرض مؤلم عسير الشفاء، كالذي حدث لبولس الرسول: «ولئلا أرتفع بفرط الإعلانات أُعطِيتُ شوكة في الجسد، ملاك الشيطان، ليلطمني لئلا أرتفع» (٢كو١٢: ٧).

أما الضرائب النوعية التي يتحتم على الخادم أن يكون مستعداً لدفعها فهي تأتي من ثلاثة مصادر:

المصدر الأول: الإثارة التي يفتعلها الشيطان في نفوس الناس من كل صنف لمقاومة الخدمة، فهو يستخدم الرؤساء والزملاء والأصدقاء

والأعداء على حد سواء، فيثير **الأحقاد والحسد والبُغضة والوشاية والوقيعة، إما سافرة كحرب علنية وإما في صورة نقد وافتراء لتشويه عمل الخادم والنَيْل من سمعته أو إيمانه أو طهارته أو تقواه.**

وهنا يواجه الخادم حرباً مُرَّة خبيثة ذات أسلحة شيطانية مُهلكة يستحيل عليه أن يخوضها بإمكانياته الشخصية، بل إن مجرد الانتباه الفكري أو التركيز الوجداني في هذه المقاومات كفيل أن يُفقد الخادم هدوءه وسلامه، وبالتالي يوقعه في القلق والحزن والاضطراب، وفي النهاية تتعطل الخدمة الإيجابية تماماً، إذ تتحول مجهودات الخادم إلى صراع نفساني يدور كله حول الذات وكرامتها.

وهنا ينبهنا بولس الرسول إلى السلاح الفعال الذي ينبغي للخادم أن يتمرن عليه لمثل هذه الحروب: «في قوة الله، بسلاح البر لليمين ولليسار» (٢كو٦: ٧)، **فاليمين بالنسبة لسلاح البر هو المناداة بالكلمة لتبكيت الخطاة وتعزية التائبين، أما اليسار بالنسبة لسلاح البر فهو انتخاب الأقوال اللطيفة اللينة لإسكات ألسنة الأعداء وقطع خط الرجعة على المفترين والمنتقدين**: «نُشتم فنبارك، نُضطهد فنحتمل، يُفترى علينا فنعظ» (١كو٤: ١٢و١٣). **وكل ذلك على أساس أننا قبلنا الإهانة والاضطهاد والافتراء قبولاً كاملاً بسرور كضريبة واجبة الدفع في الحال**: «أنتم مكرَّمون أما نحن فبلا كرامة» (١كو٤: ١٠) «كمُضَلِّين ونحن صادقون» (٢كو٦: ٨).

المصدر الثاني: الإثارة التي يفتعلها الشيطان في فكر الخادم وفي نفسه وجسده محاولاً إفساد اتزان رأيه وعمله وسلوكه عن طريق **إثارة غرائزه الطبيعية من شهوة وغضب، وحب وبغضة، وأمل ويأس، وطموح**

وانحصار، وذلك ليشككه في صلاحيته أو لياقته للخدمة أو ليشككه في دعوته كلها جملة ومرة واحدة، وذلك بأن يضع أمام عينيه باستمرار عثراته وضعفاته ويثقّل على ضميره حتى يبلغ به حافة اليأس.

هنا أيضاً ينبهنا بولس الرسول إلى ضرورة استخدام سلاح البر لليسار، ليقطع الخادم بكلمة الوعد كل وساوس الشيطان وهياجه داخل الجسد الترابي: «فإننا لسنا نكرز بأنفسنا... ولكن لنا هذا الكنز (الكرازة بالمسيح) في أوانٍ خزفية (الجسد) ليكون فضل القوة لله لا منا، مكتئبين في كل شيء (مضغوطين من كل جهة، من الخارج إلى الداخل) لكن غير متضايقين (محصورين)، متحيرين لكن غير يائسين، مطروحين لكن غير هالكين، حاملين (بسبب الغرائز والانفعالات الميتة) **في الجسد** كل حين إماتة يسوع لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً **في جسدنا**، لأننا نحن الأحياء نُسلَّم (بواسطة الشيطان) دائماً للموت (كل النهار) من أجل يسوع لكي تُظهَر حياة يسوع أيضاً في **جسدنا المائت** (أو الذي مات بسبب الخطية)» (٢كو٤: ٥، ٧-١١).

وكل ذلك على أساس أننا قبلنا كل تحديات الشيطان، صابرين، محتملين كل تعاذيبه التي يلقي بثقلها على عقلنا وعواطفنا وغرائزنا وكل حواسنا، كضريبة واجبة الدفع لحساب رب الرعية مباشرة، متذكرين باحتراس شديد قول المسيح الذي كشف به حيلة الشيطان في هذه المجالات: «أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية» (مت٢٦: ٣١)!

المصدر الثالث: الإثارة التي يفتعلها الشيطان في الطبيعة ليتخذ منها سلاحاً مؤلماً يحارب به الخادم أينما سار وأينما حل، فيثير العواصف ويهيج البحار ويثير الوحوش والحشرات والميكروبات والأخطار والحركات المريبة

في الظلام، **ليُفزع قلب الخادم ويُرعبه حتى تكلّ عزيمته ويتشكك في معونة الله ورحمته.** وهذه الحروب كانت من أبرز المحاربات الشيطانية التي واجهها بولس الرسول وغيره من الآباء والخدام في كل مكان وزمان «ثلاث مرات انكسرت بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في العمق... بأخطار سيول، بأخطار في المدينة، بأخطار في البرية، بأخطار في البحر... في جوع وعطش، في برد وعُري» (٢كو١١: ٢٥-٢٧).

هذه كلها تحديات سافرة للشيطان لا يتورَّع أن يجمعها كلها مرة واحدة في أقل وقت، وخصوصاً في بدء حياة الخادم، حتى ينهي عليه قبل أن يتشدد ويتعرف على حيله وتفاهته «لأننا لا نجهل أفكاره» (٢كو٢: ١١)!

فالخادم الحكيم يضع نصب عينيه منذ أول كلمة وأول خطوة أنه قادم على دفع ضرائب من هذا النوع باهظة وبلا عدد، ولكنها تهون كلها إزاء المعونات الهائلة التي يستمدها من الروح القدس أثناءها وبعدها!

وهذا كله يضع أمامنا خريطة روحانية دقيقة، حتى إذا فحصنا على ضوئها خدمتنا بأمانة وصدق، يمكننا أن نحدد موقعنا من الخدمة.

فقبل كل شيء نسأل: هل قد تحددت علينا الضريبة المستحقة على الخادم الأمين أم لا؟ وما هو نوع الضريبة، هل هو يتعلق بصميم التعليم والمبادئ أو يتعلق بالنفس في الداخل الذي يُعتبر أثقل الضرائب وأخطرها وأفدحها ثمناً؟ أم يتعلق بالنشاط الخارجي المتسع.

على أننا غير مخيَّرين جميعاً من جهة قبول هذه الضرائب، إذ يتحتم دفعها ونحن صاغرون، أولاً بأول، كما تُفرض علينا تماماً، سواء دفعة واحدة أو على أقساط طويلة الأجل، دون أن نهتز أو نتذمر، يدنا ممسكة بالمحراث في استماتة ووجهنا مصوَّب نحو السماء. لأن أية

محاولة للإفلات من الضريبة يضعنا في موضع الهاربين من الطريق الضيق المختلسين للمجد السماوي!

علماً بأن مظهر الخادم وهو منحنٍ أمام عنف الأشرار وطغيان السلطان يدفع الضريبة المستحقة عليه أولاً بأول، بصبر وبدون شكوى أو تذمر، يُسجَّل عليه في نظر العالم كحالة «ضعف»! ولكن مرحباً مرحباً بهذا الضعف الذي من خلاله يتسجل لنا نصيبنا السماوي في المجد «من جهة هذا (اختطافه إلى الفردوس) أفتخر. ولكن من جهة نفسي لا أفتخر إلا بضعفاتي» (٢كو١٢: ٥). وما أروع هذا الضعف الضريبي الذي دفعه المسيح قبلنا دون أن تفلت يده من على المحراث حتى الموت: «لأنه... صُلب من ضعف» (٢كو١٣: ٤)، حتى أن بولس الرسول سماه «ضعف الله» (١كو١: ٢٥)!!!

الفصل الرابع

أفراح الخادم

«فرح الرب هو قوتكم» (نح ٨: ١٠)

١- فرح صديق العريس:

«أما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً فرحي هذا قد كمل» (يو ٣: ٢٩).

في الأفراح الشعبية حينما يزفون العريس في المدينة يخرج أصدقاء العريس ويتقدمونه في الطريق راكبين الخيول أو الدراجات البخارية في موكب مبهج جداً بالزمر وأصوات النفير، ووجوههم تطفح بالبشر والفرح.

يوحنا المعمدان تعيَّن من السماء ليكون أول من يتقدم العريس ليعد الطريق في بطن الزمان، بصوت وصراخ. وحينما أكمل الشوط ظهر العريس مُعلناً اكتمال الزمان وبدء السنة المقبولة، فكان هذا الظهور أسعد مراحل جهاد يوحنا، وحينما بلغ يوحنا صوت العريس قال: «إذاً فرحي هذا قد كمُل».

ولكن بظهور المسيح أُعلن الباب والطريق والعروس معاً، العريس الآن مع العروس في خباءة الكنيسة. وسر الفرح قد ملأ أهل البيت. **الكاهن والخادم في العهد الجديد ليس هو فقط صديق العريس الفرحان لصوت العريس، كأنه يُعد الطريق أمامه حتى يبلغ بيت العروس ثم ينسحب، بل إن الخادم في العهد الجديد هو أيضاً موضوع فرح**

العريس نفسه لأنه ممثل عن العروس وجزء منها بآن واحد.

الكاهن والخادم **شريك** في فرح العريس بعروسه!! الخادم **يفرح للعريس ويفرح مع العريس!**

خدمة العريس كلها فرح، كلها بهجة، كلها سرور، وبالأكثر جداً حينما يكون الخدام هم أنفسهم شركاء العرس مع العريس ومع العروس!

خدام العريس خدام إكليل وهم أصحابه، لا يحزنون ولا يكتئبون قط، لئلا يهينوا العريس. العريس حاضر معنا في الكنيسة غير مرفوع من بيننا أبداً «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠).

العريس يطل على الكنيسة بصورة دائمة حقيقية وسرية «عندكم الآن حزن (ساعة الصلب) ولكني سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينـــزع أحد فرحكم منكم» (يو ١٦: ٢٢). وفعلاً ظهر المسيح بعد القيامة ورآه **التلاميذ ففرحوا فرحاً كان هو هو جوهر الإنجيل** كله، لأنهم انطلقوا في فرحة الرؤيا يبشرون بالبشارة المفرحة، أي يكرزون بالمسيح العريس الحي المنظور!

ويعود بطرس يُطمئن أعيننا الطامحة لمثل هذه الرؤيا الحسية بقوله: «الذي وإن كنتم لا ترونه الآن، لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد» (١بط ١: ٨).

العهد القديم كله كان ينتظر هذه البشارة المفرحة، بشارة الخلاص والرجاء، فطوَّب خدامها: «ما أحلى أقدام المبشرين بالسلام المبشرين بالخيرات» (رو ١٠: ١٥، إش ٥٢: ٧).

إن قوة الكاهن في كرازته وقوة الخادم في تعليمه هي فرحة بالعريس، لأن الفرح بالله هو الإنجيل، والإنجيل هو الفرح بالله.

٢- الفرح بتوبة الخطاة:

من الأمور المدهشة والمحيرة للعقل ما عرفناه عن العلاقة الروحية الحميمة التي تربط أرواح القديسين والملائكة في السماء بالخطاة الذين يتوبون على الأرض: «هكذا يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب» (لو ١٥: ٧).

إنه فرح روحاني فائق للعقل، فرح المصير الواحد الأبدي وبهجة الشركة في الحياة مع المسيح!

آه من هذا المسيح العجيب الذي ربط السمائيين بالأرضيين، ووحَّد وصالح الروح مع الجسد، ورفع العداوة، وجعل الاثنين واحداً.

ولكن الذي يدهشني ويحيرني جداً، **كيف لا يستمتع الكاهن والخادم بهذا الفرح ويشترك فيه ويعيش به ويتغذى عليه «إن فرحي هو فرح جميعكم» (٢كو ٢: ٣)، أليس الكاهن أو الخادم هو الذي يسوق الخطاة إلى التوبة ويفتح أمامهم باب السماء، أي أنه هو الذي يتسبب في فرح السماء كلها؟**

إنها مشكلة ومعضلة، عسيرة الحل أمامي، عندما أرى كاهناً حزيناً يائساً يمارس خدمته بالغم، أو خادماً مُعبساً يشرح الخلاص للخطاة وهو مُكتئب؟

ألا يصلح موضوع فرح السماء كلها أن يكون موضوعاً لفرحنا؟

هل يمكن أن يزف الأهل العروسة لعريسها وهم ينوحون ويلطمون؟

هل يمكن أن يُغيِّر الإنجيل صفته أو اسمه؟ أليس هو البشارة المفرحة؟ مفرحة للخاطئ والبار، للخادم والمخدوم؟ أليست هي مُفرحة للسماء كلها؟

- «وهم غلبوه بدم الخروف وبكلمة شهادتهم ولم يحبُّوا حياتهم حتى الموت. **من أجل هذا افرحي أيتها السموات والساكنون فيها**» (رؤ ١٢: ١١، ١٢).

٣- الفرح بالقوة المستمدة من الكلمة:

يمكن تعريف الخدمة بصورة مبدئية أنها قيادة الخطاة إلى التوبة، ولكن حقيقة الخدمة وغايتها العظمى هي توصيل الفرح بالمسيح إلى قلوب الناس. **فإذا لم يبلغ الخاطئ إلى الفرح بالمسيح الذي يُغنيه عن كل شيء في العالم، فهذا يكشف عن قصور خطير في مفهوم الخدمة وفي إمكانية الخادم.**

كل رأسمال الخادم يتركز في إمكانيته الحصول على قوة متجددة من القراءة والتأمل، وعلامة الحصول على هذه القوة هو الفرح الذي ينسكب في القلب بغزارة وفيض من القراءة واكتشاف صوت الله من خلال الآيات والوصايا.

الكاهن والخادم المتهلل الفرحان الذي تجري الكلمة بمعانيها الحية على لسانه بسهولة ولذة وسرور، هو صورة حية صادقة وأمينة للإنجيل أي البشارة المفرحة!

٤- الفرح بازدياد الآخرين:

«ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يو ٣: ٣٠).

إن عمل الخادم الأساسي أو صفته الأولى هي أنه يعطي ويعطي باستمرار وبلا ملل أو بُخل، وبلا قيد أو شرط. يعطي للضعيف ليزداد قوة، وللقوي ليزداد ثباتاً. يعطي للصديق والغريب والعدو، يعطي بلا محاباة ولا تمييز، من عمله وخبرته وماله وروحه.

فإذا كان عطاء الكاهن أو الخادم عطاء من الله صحيحاً ومخلصاً، تكون علامته أن الخادم يفرح بازدياد الآخرين حتى ولو كان على أساس نقصانه هو! والمسيح غبط العطاء والحب الصالح عندما يكون بلا نية لاسترداد الثمن أو الجزاء المساوي!

الكاهن أو الخادم الذي يعطي باحتراس وشحٍّ خوفاً من تسرب معلوماته أو خوفاً من تفوُّق الآخرين عليه، يستحيل أن يفرح بالعطاء ويستحيل أن يفرح بازدياد الآخرين؛ هو تاجر معلومات وعلم أكثر منه خادم خلاص ومجد.

- «وأما أنا فبكل سرور أُنفق وأُنفَق لأجل أنفسكم - حتى - وإن كنت كلما أحبكم أكثر أُحَبُّ أقل، فليكن» (٢كو ١٢: ١٥، ١٦).

٥- الفرح بالدعوة لخدمة يسوع المسيح:

حينما يؤكد بولس الرسول بقوله: «صادقة هي الكلمة إن ابتغى أحد الأسقفية (أي افتقاد المؤمنين وتدبير الكنيسة) فيشتهي عملاً صالحاً» (١تي ٣: ١)، يريد أن يوضح أمامنا أن **الخدمة هي بحد ذاتها عمل**

صالح. فإذا اشتهيناها على أساس ذلك أي أنها عمل وعمل ثم عمل، فهذا صالح. أما إذا اشتهينا الخدمة دون أن يكون في أساس فكرنا وضميرنا أننا سنعمل الصالح أو الصلاح، فهذه الشهوة تكون باطلة **وميتة**.

ولكن الذي نود أن نتأمله من هذه الآية المقدسة هو أن عمل الخدمة أو عمل التدبير في الكنيسة هو أمر شهي، هو شيء يُحَبُّ ويُشتاق إليه من كل القلب، لأنه متعلق بخدمة يسوع شخصياً. ويسوع نحن نحبه، ونحبه فوق الطاقة وفوق العقل، حتى حدود الموت تماماً، والموت أيضاً لا يمكن أن يفصلنا عن حبه. وهو يفرح بحبنا له ويطالبنا به، لأننا في ذلك نحن الرابحون. والمسيح وضع علامة لبرهان صدق حبنا له، وهذه العلامة هي استعدادنا بفرح أن نخدمه ونرعى غنمه «أتحبني؟ ارعَ غنمي!» (يو ٢١: ١٦).

فأي إنسان يُدعَى لخدمة اسم المسيح سواء من نفسه بسبب شهوة حبه للمسيح، أو بسبب اضطرار الله أو الآخرين له ورضوخه لهذا الاضطرار بسبب حبه المتأصل في قلبه من نحو المسيح، فبمجرد أن يدخل هذا الإنسان تحت نير الخدمة بداعي هذا الحب، فإن الله يختم على دعوته أنها صادقة وأمينة ويُدخله في سر الفرح الإلهي «اُدخل إلى فرح سيدك» (متى ٢٥: ٢٣).

ولو تمعنَّا دائماً في القيمة الروحية المتحصلة من الخدمة ومقدار المجد العائد على المسيح من كل قول وعمل يؤول إلى خلاص الناس من عبودية الشيطان، لأدركنا في الحال أن فرح الخادم بالخدمة لا يعلو ولا

ينبغي أن يعلو عليه أي فرح في هذا الزمان، **لأن خلاص إنسان واحد يتحصل منه مجد للمسيح في السماء أفضل من ألوف تسبيحات لآلاف ملائكة!**

«فماذا؟ غير أنه على كل وجه سواء كان بعلَّة أم بحق يُنادَى بالمسيح وبهذا أنا أفرح بل سأفرح أيضاً لأني أعلم أن هذا يؤول إلى خلاص!» (في ١: ١٨، ١٩).

٦- الفرح بسر الآلام:

ليس كل من يتألم يستطيع أن يتذوق الفرح المتولد من الآلام.

بل إنه يبدو لكثيرين كأنه أمر غير معقول. لأن الألم والفرح من وجهة النظر الطبيعية نقيضان. ولكننا نقول إنه سر! والسر دائماً يفوق الطبيعة، نحن هنا نكرر ونتكلم عن سر الفرح في سر الألم!

الكاهن أو الخادم هو أولاً وقبل كل شيء خادم لسر آلام المسيح.

لا يستطيع أحد أن يكرز بسر آلام المسيح دون أن يكون شريكاً في هذا السر: «أمين هو الله الذي به دُعيتم إلى شركة ابنه يسوع المسيح ربنا» (١كو ١: ٩). إن شركة حياتنا مع المسيح هي قائمة وتقوم على سر آلامه، وسر آلامه يقوم مسبقاً على سر فرحه «الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب ١٢: ٢). شركة الحياة بين صديقين أو بين عروس وعريس، معناها تبادل الأحزان والأفراح وكشف أعماق أسرار القلب.

الرب لا يكشف سر آلامه إلا لأحبائه الأخصاء جداً الذين يجد فيهم

راحة لقلبه، هؤلاء يستودعهم سر آلامه لا بالكلام ولا بالمعرفة ولا بالكتابة ولا بالخطابة، ولكن بأن يهبهم جزءاً أو نصيباً مماثلاً لآلامه يتناسب مع الفرح والمجد الذي ينتظرهم: «لأنه قد وُهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله» (في ١: ٢٩). وهل يمكن أن تشترك العروس في أفراح عريسها دون أن تشترك في صميم آلامه؟ وأي صديق يحب صديقاً إن هو استعفى من الاشتراك في صميم آلام صديقه؟

الرب يهبنا الآن شركة عملية في سر آلامه، لأنه يستحيل بدونها أن نحصل على سر الفرح الأبدي فيه، الذي نسبق ونتذوقه منذ الآن.

كل كاهن أو خادم يحيا في شركة أمينة مع المسيح يستحيل أن يذوق أفراح الرب خلواً من آلامه، ولا يوهب نصيباً في آلام الرب دون أن يسعد بنصيب معه في سروره.

إذا غاب الفرح عن القلب المتألم، كان ذلك برهاناً على غياب وجه العريس. حضور المسيح يعطي للألم مذاقة أخرى، وصورة المسيح مكللاً بالشوك وهو يلفظ النَفَس الأخير كفيلة أن تمزج آلامنا بفرح ما بعد الصليب.

الكاهن أو الخادم الذي توطدت له صلات المحبة الصادقة بشخص الرب، ودخل معه في عهد عشرة صادقة؛ لا تعود حياته يحياها لنفسه، فكل دقائق حياته تدخل في دائرة حياة المسيح. فكما تصبح آلام المسيح كلها آلامه، كذلك تصبح كل آلامه هي آلام المسيح، وكأنما يكمل مع بولس الرسول كل يوم نقائص شدائد المسيح في جسده. لذلك فإن بلوغ

الكاهن أو الخادم إلى يقين حياة التسليم ينقل حياته كلها برمتها من دائرة الجسد إلى دائرة الروح. وحينئذ تسمو كافة آلامه – من أعظمها إلى أصغرها، من تهديد الموت إلى أصغر مرض أو أصغر جرح – إلى مستوى الذبيحة المقدمة – إلى مستوى الصليب – فلا يملك حينئذ أن يقدم في آلامه إلا مزيداً من الشكر والتهليل، إذ حُسب أميناً على سر العريس وشريكاً لآلامه الظاهرة والباطنة.

إن آلام الكاهن والخادم تتقدس دائماً في آلام المسيح، **هنا سر الفرح!**

الخِدْمَة

الجزء الثالث

المحتويات

الباب الأول: نحو خدمة كنسية أرثوذكسية:

الفصل الأول: التربية الدينية

الفصل الثاني: الخدمة وروح المنهج الأرثوذكسي.

الباب الثاني: في بناء الخادم:

الفصل الأول: إعداد الخادم كنسياً.

الفصل الثاني: بناء الخادم نفسياً (١)

الفصل الثالث: بناء الخادم نفسياً (٢)

الفصل الرابع: البناء الروحي للخادم (١)

الفصل الخامس: البناء الروحي للخادم (٢)

- العمل النسكي.

الفصل السادس: البناء الروحي للخادم (٣)

- بناء عقيدة الخادم.

الفصل السابع: البناء الروحي للخادم (٤)

- البناء الأخلاقي للخادم.

الفصل الثامن: البناء الروحي للخادم (٥)

- الاختبار الروحي في حياة الخادم.

الباب الأول

نحو خدمة كنسية أرثوذكسية

الفصل الأول

التربية الدينية

إننا شعب متدين محافظ، لنا تقليد موروث صالح، ولنا أن ننتفع وأن نفتخر بحق بهذا التراث الذي خلّفه لنا آباؤنا القديسون العلماء الملهمون.

وكل من يطّلع على تعاليم الآباء (ومعظمها لم يُترجم بعد)، يدرك أهمية هذا التراث لما فيه من عمق روحي وفلسفي — ويندهش كيف لم ينتفع به أصحابه حتى الآن.

ويؤكد العلماء أن هذه التعاليم لو عُرضت علينا عرضاً سليماً بلغتنا، فسوف تجدد عصراً ذهبياً لمصر — لن يقل عن عصر القديسين الأوائل، لأن الروح الشرقية العميقة والوجدان القبطي ذخيرة حية فينا لن تفنى!

أليس من المدهش والمحزن لأرواحنا جداً أننا نتغافل عن هذه الحقائق ونجري وراء المعارف الدينية الحديثة في بلاد ليس لها من العمق والتراث والتاريخ في المسيحية ما يوازي قدراً ضئيلاً مما لكنيستنا المجيدة، بل ونتتلمذ لنظم الدين والتربية في بلاد هي أحوج ما تكون لتعاليمنا، بل وهي من أشقى ما يكون لفقر شعوبها من الشاعرية الدينية والوجدان الروحي العميق؟

إن تلك البلاد التي تحاول أن تعلّمنا كيف يمكن صنع القديسين، وبأي أسلوب تُعلّم المسيحية، تصرخ من عدم نفع برامج التعليم الديني ونظم التربية الدينية التي ابتكروها في صَدِّ التيارات التي تجتاح شبابها من إباحية ومادية وإلحادية وكل بدعة جديدة شيطانية!

فمثلاً بالنسبة للشباب الأمريكي، رغم مجهودات رؤساء الدين التي

تعضدها ملايين الدولارات وجهابذة الفكر وأحدث طرق التربية، ينصرف الشباب هناك عن الإيمان بالله بصورة مزعجة للغاية.

لمـــــاذا؟

لأنه مخدوم في نطاق الدين خدمة ممتازة — ولكن فقط حسب البرامج العقلية والمنطق والبراهين العلمية. فعندما يصطدم بمنطق العلوم التجريبية ونتائجها الواقعية الجبارة يرى أن منطق الدين — كما قُدِّم له — ضعيف! فيشكُّ.

ثم يصطدم مرة أخرى بحقائق الحياة العملية فيتكشَّف له اختلال موازين الرحمة والعدل في توزيع الكوارث والآلام، خصوصاً إذا أصابه شيء منها ولم يستطع أن يعلله تعليلاً يرتضي به عقله، فيرتدُّ.

وهو مظلوم حقاً لأن برامج التربية الدينية سلمت إليه سلاحاً لا يصلح لفحص الحقائق الروحية — أي الفحص العقلي.

كيف يواجهون الدين.

ولكن ليست البرامج الدينية الخارجية وحدها هي التي لا تناسبنا ولكن نفس طرائقهم في التفكير وأسلوب أخذهم للحقائق الدينية تختلف عن طرائقنا وعن أسلوبنا تمام الاختلاف.

فالعقلية الغربية عقلية تحليلية، فالغربي إذا سمع عن معجزة لا يكتفي بتصديقها بل يحاول أن يفهم لماذا عُملت! بل إنه يحاول أيضاً أن يعرف كيف عُملت! وهو يواجه هذه الظاهرة الدينية على نمط طريقة العقل في مواجهة حقائق العلم. وإننا نلحظ بوضوح في جميع مؤلفاتهم مَيْلهم دائماً

إلى التحليل، وهم مقتدرون فعلاً في هذا المضمار، ولعلهم أقدر من يحلل الشخصيات ويكتب تراجم حياة الناس.

وعلى هذا الأساس التحليلي توضع برامجهم التربوية، وتشكل عقولهم وتبتكر نظم التعليم الديني عندهم.

أما في الشرق.

فإن الشرق يفهم الله والدين بقلبه ويخضع له بشعوره ووجدانه ولا يعتمد على البراهين العقلية كثيراً، بل إنه لا يلجأ أيضاً للاختبار والتجريب وإنما يستخدم حاسته الروحية في تفهم الحق وفحصه وقبوله. وهو بذلك يفهم الله والدين فهماً **صحيحاً عميقاً** لأن طاقة الإحساس الروحي هي الطاقة الأصيلة الوحيدة في الإنسان المخصصة لمعرفة الله والحق. وهي أيضاً أعمق من العقل وأوسع دائرة، وأقدر على التثبُّت. وهي إذا آمنتَ مرة ولمستَ حقائق الله والدين، فهيهات للعقل أو العلم أو المخترعات أو الشيطان أن يزعزعها.

لذلك يلزم أن تقوم برامجنا الدينية والتربوية أولاً على أساس وجداني روحي محض، أما استخدام الوسائل العلمية، وتقديم البراهين العقلية، فليس هو المنهج الصحيح للتربية الدينية.

وثمة ملاحظة نراها في شبابنا، أنه يمر أحياناً بفترة من حياته تختل أمامه فيها القيم الروحية والدينية وذلك تحت ظروف كثيرة حتى يخيل لذويه ومعلميه أنه ضل الطريق نهائياً وأنه يعسر إقناعه بالدين بشتى الطرق. ولكن الواقع والمشاهَد أنه بعد مدة يعود من تلقاء نفسه.

هذا بعكس شباب أوروبا وأمريكا الذي إذا خرج من حظيرة الدين

يكون خروجه مؤكداً ودائماً. أما سبب الخلاف فهو راجع في الواقع للفارق في طريقة قبوله للدين، فهم يقبلونه كما قلنا بعقولهم الفاحصة بأدلة وبراهين، أما نحن فنقبله بالإحساس والوجدان، باقتناع الروح الداخلي، فإذا هم نبذوه فإنما ينبذونه عن اقتناع عقلي أقوى من الاقتناع العقلي الذي قبلوه به، وحينئذ هيهات لهم الرجوع.

أما شباب الشرق فإنه إذا نبذ عنه الدين فإنما ينبذه بعقله، ولكن لمسات الروح التي قَبِل بها حقائق الدين من قبل تظل حية في أعماق وجدانه، تتحكم في حرية عقله إلى أن تقوده يوماً إلى الرجوع إليها خاضعاً في ولاء أشدّ وإيمان أحرّ.

خلاف في المنهج:

ولكن هناك خطورة على أية حال في اقتباس الطرق العقلية للتربية الدينية، واستخدام البراهين والمحاجاة والتحليل التي يستخدمها الغرب في تثقيف أبنائه لمواجهة التيارات الإلحادية هناك، كي نستخدمها نحن لأبنائنا الذين يعيشون بوجدانهم الروحي الموروث.

إنَّ في استخدام هذه الوسائل تنشيطاً لقُوَى التحليل والتشكك العقلي، وتغليباً لها على موهبة الوجدان الصالحة والكفيلة لأداء مهمة تقبُّل الروح والدين والله.

ولن تستطيع هذه البرامج مهما بلغت من الإتقان والتمشِّي مع وسائل علم النفس الحديثة أن تنجح يوماً في تغذية قلب الشاب الشرقي، لأن طبيعة الشرق في تفهُّم الله والدين لا تقوم على أساس التحليل العقلي المحض، وإنما تقوم وتعتمد على الوجدان والروح، كما قلنا، وبغير طريقة

التحليل بل بعكسها تماماً، أي عن طريق التركيب والتجميع بناء وتنمية مدارك الروحيات = Synthesis = edification التي تكوِّن طاقة قوية جبارة للإبداع والخلق.

فمثلاً لو سمع الشرقي عن قديس بارع مقتدر بالروح، فإنه يتقبل القصة بوجدانه وينفعل انفعالاً روحياً، وتنشط قوى النفس عنده للتجميع والتركيب لإبداع نموذج مماثل، سواء في شخصه أو في أحد أولاده أو مريديه.

بعكس الغربي كما قلنا الذي ينفعل انفعالاً عقلياً تحليلياً، فيبدأ يحلل شخصية هذا القديس ليُخرج لنا كتاب ترجمة عن حياة ذلك الإنسان.

ولهذا نجد الشرق قد امتلأ بالقديسين أما الغرب فقد اكتظ بالكتب.

عدم استقرار:

إن عدم الاستقرار في البرامج الدينية، وسرعة استخدام الطرق الجديدة للتربية ظاهرة ملحوظة في بلاد الغرب عامة، وفي أمريكا التي فاقت الكل، ذلك لأن العلم يتنازع لديهم دائماً مع الدين، والسبب واضح كما قلنا، فالعقل هو الوسيلة التي يستخدمها الغربي لتفهُّم كليهما وبطرائق واحدة وأسلوب واحد تقريباً.

أما في الشرق، فنظراً لاختلاف حاسة الدين عن وسيلة العلم، يمكن القول بعدم وجود هذا التنازع بصورة جدية. فمهما تقدم العلم فإنه لا يزعزع الإيمان بالدين — لأن هذا موجود في القلب يُلهم الحياة، ونطاقه أبعد ما يكون عن نطاق العلم؛ إلا إذا استثنينا بعض أفراد تلقوا العلم في الخارج أو تثقفوا بالثقافة الأجنبية فتنشطت قوى النقد العقلي والتحليل

عندهم، وحتى هؤلاء لن تجدهم جادين في تشككهم وإنكارهم.

إذن فليس من العدل، بل ليس من الحكمة، أن نتبارى مع الغربيين والأمريكان على الخصوص في استخدام طرائق تربيتهم الحديثة، كما لا يمكننا أيضاً أن نتمشى معهم، لأن قدرتهم في التجديد والاستحداث شديدة، حتى أن المصري قبل أن يصل إلى شواطيء بلاده عائداً من هناك مزهواً بشهاداته وقد ملأ قلبه وزحم عقله بأحدث طرائق التربية، أقول قبل أن يصل إلى بلاده يكون الأمريكان قد استحدثوا طرقاً جديدة على نظريات جديدة، وأصبحت الطرق التي في عقل القادم من هناك عتيقة غير صالحة في نظرهم.

وللأمريكان قدرة عجيبة على نبذ القديم وقبول كل حديث بسهولة فائقة. فهم قادرون فعلاً على التغيير والاستحداث وقد صار ذلك طبيعة لهم لازمة لتتمشى مع أساليب الحياة هناك ليس في الدين فقط بل في جميع نواحي المعيشة.

منهجنا في التربية.

أما نحن فليس من الصالح أن ننبذ القديم في أمور التربية الدينية، لا لأننا جهلة متقاعسون، ولكن لأن الأسس الدينية التي تربينا عليها أسس صالحة مستقرة وصلت إلينا من أجيال مستنيرة بالروح، جلهم فلاسفة روح، ملهمون، كتبوا وعلّموا مُساقين بقوة الله، وضعوا أساساً لعلمهم منهج القديس بولس الرسول: «وأنا لما أتيت إليكم أيها الإخوة أتيت ليس بسمو الكلام أو الحكمة منادياً لكم بشهادة الله... لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً... وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الإنسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة، لكي لا

يكون إيمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله» (١كو ٢: ١-٥).

بهذا المنهج صنعت كنيستنا القديسين جيلاً بعد جيل وقدمت للسماء عدداً هائلاً من الشهداء وأبطال المسيحية الخالدين، وذلك لأن كنيستنا في حقيقتها مدرسة روحية مليئة بأساليب تربوية عملية ومبادئ روحية ثابتة موطدة، قادرة أن تشيع في قلوبنا راحة واطمئناناً، وكفيلة لكل من يحبها أن تملأ حياته سلاماً واستقراراً وفهماً لجميع مشاكل الحياة في كل ظرف وفي كل عصر. والذين ذاقوا حبها وعاشوا بروحها يعرفون صدق هذا الكلام.

لذلك فنحن نحتاج لا إلى استحداث شيء فيها أو تغيير أساليب تربيتها لنا، بل بالحري إلى تفهُّم ذلك المنهج الروحي المتقن، والترتيب العملي القوي الذي يصبُّ الدين في النفس ليَشيع في كل الحياة.

والواقع أن الطرق التربوية الجديدة لازالت لدى علماء التربية أنفسهم غير ثابتة ونتائجها أحياناً ما تكون وبيلة. ذلك لأن العلوم التي يرتشد بها المربون هناك مازالت هي نفسها غير مستقرة، خصوصاً علم النفس الذي يستهدف لتيارات عنيفة من التغيير، فما أشد الهدم فيه وما أسرع البناء، وكثيراً ما يلتقط التربويون نظرية غير ممحصة من أفواه علماء النفس ويضعون عليها برامج مستحدثة للتربية ثم يثبت بعد حين خطأ النظرية، فتكون الآثار السيئة والخسارة لا في أموال بل في نفوس وأجيال.

ثـــقـــة.

إن القبطي حين يذهب إلى تلك البلاد، وحين يقارن بين أسلوب كنيسته وطرقهم في التربية الدينية وبين روعة نظام كنيسته، يكتشف ويحس على الفور بأن روحه لا تنسجم مع تلك المناهج البراقة التي تستند إلى العقل والتحليل والعلم أكثر مما تخاطب القلب والروح.

إن غاية التربية الدينية هي صُنع القديسين، ومن الثمر تُعرف الشجرة؛ فأي نظام للتعليم والتربية أثمر رجالاً قديسين يشهدون بحياتهم لفاديهم أكثر مما صنع نظام كنيستنا؟

إذن، فلابد أن تتيقظ أرواحنا ومشاعرنا لندرك التعارض الذي تحمله وسائل التربية الدينية الغربية مع روحنا التصوفية الشرقية الهادئة المستقرة. وإن واجبنا الآن هو بعث الروح القبطية في التعليم والتربية المسيحية واكتشاف ما يحويه هذا النظام من إمكانيات ووسائل عملية كي نطبقه تطبيقاً واعياً لنصنع في جيلنا هذا ما حققته الكنيسة في كل تاريخها، حين جعلت أبناءها قديسين يحيون هنا على الأرض ناظرين إلى القدوس الذي دعاهم، ومنتظرين مجيئه في حب ورجاء وبثقة.

وكي يتحقق هذا الهدف، هناك واجب حتمي تلقيه الكنيسة في هذا الجيل على أولئك الذين وهبهم الله قوة الترجمة والإنشاء لكي يقوموا بترجمة تعاليم الآباء الأُول وهي ذخيرة تربوية دينية فلسفية هائلة توجد في مجموعات الكتب التي ظهرت حديثاً باسم "آباء ما قبل نيقية" و"آباء نيقية وبعد نيقية" – ومجموعة "الفيلوكاليا" الأصلية الكبيرة التي تحوي جميع أقوال الآباء الروحيين. بذلك يتيقظ الوعي عندنا، ونمهد السبيل الصحيح لتربية أرواح الأبناء من نبع تعليم آبائهم الأصيل النقي، فلا يعودون يتسوَّلون جرعة ماء من شعوب عطشى، بل يرتوون من نبعهم الخاص فتخرج من بطونهم أنهار ماء حي تسقي العطاش وتقودهم إلى الحق.

الفصل الثاني

الخدمة وروح المنهج الأرثوذكسي

كانت الكنيسة في الأجيال السابقة لا تقوم بعملية التربية الدينية كما تراها اليوم بصورتها المتخصصة، لأن البيت القبطي كان هو مركز تسليم الروح الدينية الأرثوذكسية. فالأب والأم وبقية أفراد الأسرة كانوا يشعرون بمسئوليتهم العظمى من جهة تسليم روح الكنيسة لأولادهم، فكان الولد يستقي منذ الطفولة روح الكنيسة والمعرفة الدينية بالتلقين اليومي، بالنموذج الحي، بالتوجيه العملي، بالقيادة، وبالقدوة.

ولكن الكنيسة منذ بداية القرن العشرين التزمت بالتربية المتخصصة بعيداً عن الأسرة بسبب طغيان المجتمع خارج البيت والكنيسة وانصباغه بروح عالمية مضادة تماماً للدين والأخلاق المسيحية. وفي نفس الوقت أصبح البيت المسيحي عاجزاً عن تسليم روح الكنيسة بسبب هبوط مفاجئ في المستوى الروحي مع فوارق الثقافة والتقدم العلمي بين جيل الآباء وجيل الأبناء.

هنا التزمت الكنيسة أن تستعير الأتقياء الناضجين من جيل المثقفين لتثقيف الأجيال الصغيرة الصاعدة لتعوض عن البيت النموذجي. الخادم هنا هو ممثل البيت المسيحي التقليدي، رسول الروح الأبوية التقليدية يحمل روح الآباء ويُسلِّمها للأولاد.

وبدخول التربية الدينية مجال التخصص الكامل خارج البيت وحملها مسئولية تربية الأجيال، أصبح من ألزم واجباتها استيعاب الروح الأرثوذكسية بأصولها وفروعها وتسليمها بكل أمانة ودقة حتى يُكتب

للأرثوذكسية الامتداد والانتشار.

ولكي ندرك أصالة التسليم والتلقين الأرثوذكسي في الأجيال الأولى، يكفي أن نتذكر كيف كان الشبان وحتى الأولاد يُقبلون على الاستشهاد واحتمال أبشع أنواع التعذيب في أزمنة الضيق والاضطهاد بحرارة وحماس يفوق قامة الكبار والشيوخ. وهذا يكشف عن مدى النجاح الهائل الذي بلغه البيت المسيحي أي الآباء والأمهات وأيضاً الكنيسة في تسليم روح الإيمان وحرارة العقيدة في ذلك الزمان.

وصورة أخرى تكشف لنا عن مدى أصالة التعليم الديني عند الشعب على اختلاف قاماته ومستوياته، هذه الصورة هي سلوك الشعب أثناء حروب العقيدة التي كان يخوضها الشعب بنفسه ضد البدع والهرطقات في أزمنة المجامع – الأجيال الثالث والرابع والخامس – فقد سجل لنا التاريخ الكنسي مناظر رائعة للشعب رجالاً ونساءً وهو يرتل التراتيل الخاصة بالعقيدة في البيوت والأسواق والحقول والمرافئ، وذلك تأكيداً لأصالة الإيمان الأرثوذكسي وتحدِّياً للخارجين عنه. وهذا يكشف أيضاً عن مدى ما بلغه كافة الشعب من وعي ديني بعقيدته وتقليده.

إذن، فكل ما نسعى إليه في الخدمة، عندما يوكل إلينا تربية الأولاد أو الشبان أو بقية الشعب، هو أن نبلغ بالإيمان المسيحي عندهم إلى مستوى الحياة، وبالتالي نصل بالعقيدة إلى مستوى الشهادة الواعية، أي أن يصل الإنسان في تديُّنه إلى أن يفضل الموت عن الحياة بدون المسيح: «لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح» (في ١: ٢١)، أي أن يعيش معه وفي حضرته ولا يطيق أن يعيش بعيداً عنه، وأن يجاهر بالأرثوذكسية كميراث

أوحد لكنيسة حملت صليب المسيح ألفي سنة! فإن بلغت الخدمة هاتين الغايتين تكون قد نجحت فعلاً في سعيها.

وقد يظن بعض المجددين في التربية الدينية أن متطلبات العصر تحتاج إلى تغيير أو تطوير في المناهج الفكرية الآبائية، هذا وهم خاطئ، فالأرثوذكسية بالذات أقوى ما فيها هو التقليد، بل إن التقليد هو قوتها وحياتها، والتقليد الأرثوذكسي حياة مسيحية موروثة وليس فكراً، والحياة في المسيح لا تشيخ ولا تتبدل، كالمسيح نفسه أمس واليوم وإلى الأبد هو هو. والحياة المسيحية الأرثوذكسية بلغت منتهى قوتها منذ البدء والعالم كله يشهد لها، فليس من بعد أثناسيوس وكيرلس وأنطونيوس ومقاريوس من تعديل أو تجديد، فقد بلغوا إلى ملء معرفة المسيح والحياة معه وسلّمونا هذا الملء عينه وهذه الحياة، ولا زلنا منها نشرب ولن نأتي على نهايتها حتى يأتي المسيح!

صحيح أن هناك مشاكل ومسائل تُطرح علينا اليوم في الخدمة، ولم تكن تُطرح على آبائنا من قبل، كمشكلة تحديد النسل مثلاً أو الطلاق أو الهجرة أو المخدرات أو استخدام الراديو أو التليفزيون أو عمل برج يصل إلى القمر، أمور جديدة تماماً استحدثها مجتمع صاخب متضارب. ولكن لا ينبغي أن نتهرب من مواجهتها، كما لا ينبغي أن نجحدها كأنها لم تكن، وهي واقعة في بيوتنا تحت سمعنا وبصرنا. فمشاكل اليوم لا تُحل بنعم أو لا إنما يلزم أن نُخضعها لفكر المسيح لنخرج لها بحلول جذرية تتمشى مع روح العقيدة ومع كل فرد، دون أن نتجاهل الواقع أو ننطوي تحته، فالخادم الروحاني الذي انفتحت بصيرته بروح المسيح واستوعب الإنجيل وروح التقليد يستطيع أن ينـــزل إلى كل مستوى

ليرتفع بكل مستوى.

حينما نبحث عن أصول الخدمة في الكنيسة على أسس أرثوذكسية ومناهج موضوعة خصوصاً في الستين سنة الماضية نواجه فضيحة لابد أن نعترف بها، فهذه البرامج لم تكن أرثوذكسية إلا اسماً، فكان الخدام المسئولون يستخدمون المناهج الغربية أي البروتستانتية يترجمونها كما هي مع إضافة بعض فصول عن الأسرار والطقوس والقديسين والشفاعة، متوهمين أن مثل هذه اللصقات كفيلة أن تجعل المنهج أرثوذكسياً.

ولكن ما يلزم أن نعرفه الآن أن المنهج الديني لا يعني أبداً تبويب بعض مواضيع وتقسيمها على فصول السنة، فهذا يسمى **برنامجاً** وليس **منهجاً**.

معنى المنهج:

المنهج الديني يختص بالأساس الروحي الثابت الذي يطابق روح التقليد والذي نفهم به المواضيع ونشرحها، وليس هو الموضوع في حد ذاته، المنهج هو طريقة الفهم والشرح والاستيعاب. فهل نفهم الإنجيل والآيات بمنهج أرثوذكسي أو بمنهج غربي (بروتستانتي أو كاثوليكي)؟ هل نفهم الكنيسة والطقوس والأسرار بمنهج أرثوذكسي قبطي أو منهج غربي (بروتستانتي أو كاثوليكي)؟ فالرجل الغربي (البروتستانتي أو الكاثوليكي) عنده طقوس وعنده أسرار، ولكن طريقة فهمه وشرحه واستيعابه لها تختلف جذرياً عن الطريقة الأرثوذكسية.

كذلك فالمنهج يتعلق بطريقة التعليم والتربية والأسلوب الذي نستخدمه لنمو مدارك الأولاد والشباب، فهل الطريقة التي نستخدمها في التربية الدينية -أي الخدمة بمعنى أصح- تتبع طريقة تعليم غربية

بروتستانتية عقلية، أم طريقة تعليم شرقية أرثوذكسية روحية؟

كذلك المنهج يرتبط ارتباطاً جذرياً بالمُثُل العليا التي نوجه إليها التربية، أو بمعنى آخر أن المنهج مسئول عن الصورة النهائية التي ينتهي إليها نضج الشاب ويتبلور عليها فكره وروحه. فهل المثل النهائي أو الصورة المثالية التي نضعها نصب أعيننا في الخدمة تهدف نحو مثل غربي بروتستانتي فردي متحرر، أو مثل أرثوذكسي كنسي جماعي؟

الفرق بين المنهج الغربي والمنهج الأرثوذكسي:

ونحن حينما نفرق بين منهج غربي ومنهج أرثوذكسي، فنحن في الحقيقة لا نتعرض لعقائد وإنما نفرق أساساً بين منهج غربي ومنهج شرقي، فالبروتستانتية وليدة عقل ألماني، قامت مناهجها على أساس المنطق العقلي والمحاجاة الفكرية والحرية الفردية لإنسان أو لبعض الناس الغربيين الذين لم يستسيغوا ولن يستسيغوا أن يخضعوا للروح إلا بما يقبله العقل.

فالمنهج البروتستانتي منهج عقلي فردي. ولأن لكل إنسان عقله، لذلك صار لكل إنسان غربي منهجه ودينه.

المنهج الأرثوذكسي منهجٌ روحيٌ وليس بعقلي، فهو يُخضع العقل لفعل الروح، وليس العكس. ومعروف أن الروح لا يعمل أبداً على مستوى فردي فهو يجمع ولا يفرق، يوحد كل اثنين فيجعلهما واحداً، وبهذا لا يبقى خلاص أو دين لفرد، فلا خلاص في المنهج الأرثوذكسي خارج الكنيسة أي خارج الجماعة المتحدة بجسد المسيح وروحه. الأسرار المرفوضة في المنهج البروتستانتي هي في المنهج الأرثوذكسي أساس

التجميع والوحدة: فسر المعمودية يلد الفرد، وفي الحال يضمه إلى جسم الكنيسة بالإفخارستيا، وسر الزيجة يُنهي على الروح الفردية ويجعل الاثنين جسداً واحداً، وسر الكهنوت يحقق سر المصالحة في الكنيسة لجمع المتفرقين إلى واحد، وسر الاعتراف عودة بالضال المنفرد إلى الكنيسة جسد المسيح السري، وسر مسحة المرضى هو سر انسكاب الشفاء الروحي للتأمين ضد الانفصال. الأسرار كلها إذن تجمع وتوحِّد وتؤمِّن نمو الجماعة، المنهج البروتستانتي يرفضها إن لم يكن شكلاً فموضوعاً، لأن البروتستانتية ديانة فردية تقدس الحرية الفردية والحرية العقلية.

ومن هنا أظن أنه يتضح خطورة ترجمة المناهج البروتستانتية وإعطائها عناوين أرثوذكسية، لأن الخط الفكري الغربي يتغلغل في كل كلمة وكل فكرة وكل موضوع وكل طريقة، وسبق أن قلنا إن المنهج له تأثير حتمي على فكر الخادم والمخدوم. فالمنهج الغربي يوجه توجيهاً لاشعورياً لتكوين جيل عقلي فردي متحرر.

الكنيسة الأرثوذكسية تعاني الآن معاناة مؤلمة من جراء الجرعات التربوية الغربية التي سقاها لها المجددون في التربية الكنسية.

الشباب اليوم ازدحم عقله بالثقافة والمعرفة الدينية دون أن يكون لها واقع حي في حياته وسلوكه، إلا بالقدر الذي استقاه هو نفسه من الأمثلة الحية التي رآها. هذه هي النتيجة الحتمية لمنهج مدارس الأحد الذي اضطلع به الخدام والأمناء منذ الثلاثينات من هذا القرن.

الشباب اليوم ينتقد بمرارة الأوضاع الكنسية والصلوات الطويلة

والأصوام الكثيرة والألحان واللغة القبطية، لأنه لم يتذوقها بالقدر الكافي، ولم تكن جزءاً من **منهج تربيته** وحتى ولو كانت جزءاً من **برامج دروسه** التي تعلمها وحفظها وبرع فيها، فهي لم تكن على مستوى الممارسة الحية والخضوع الروحي والتذوق الكنسي. لقد كان البرنامج أرثوذكسياً شكلاً، فالمواضيع أرثوذكسية بلا شك، فقد درس الشاب عن القديسين والشفاعة والأعياد والأصوام كما يدرس الطالب المسيحي في كلية الآداب التصوف الإسلامي والهندي دون أن يمارسه ويعيشه حقاً. لقد درس القداس الإلهي على مستوى بروتستانتي، أي عقلي، فقد عرف كل شيء فيه، ولكنه لم يتذوقه ويخضع له بروحه فبقي حضور القداس عنده مجرد طاعة، أو التزام معرفة وتطبيق معلومات، وليس حياة يحياها ويستمتع بها كمصدر سرور وعزاء لا غنى عنه.

الشباب اليوم يسأل كثيراً ويناقش ويحاجج في الروحيات كأنها علوم، فبعد كل سؤال، سؤال آخر، ووراء كل نقاش استعداد لنقاش آخر، والمحاجاة محاجاة من أجل المحاجاة، لأن المنهج الذي عاش عليه منهج عقلي بروتستانتي، أي غربي، ينمي المدارك العقلية بالشرح والتوضيح الذهني. فالعقل كبر ونضج وتفتّح لمعرفة الروحيات على أساس منطقي علمي، لذلك فلن يكف عن السؤال ولن يقف عند نقاش معين أو ينتهي عند محاجاة، بل المزيد ثم المزيد إلى مالانهاية حتى تصطدم المعرفة باللامعقول، والمعرفة حتماً تصطدم باللامعقول في المجال الديني، لأن الروحيات ليست قابلة للسؤال إلى مالانهاية ولا تخضع للنقاش إلا على أساس التسليم بما يفوق العقل والمنطق.

والمنهج الأرثوذكسي يختلف عن المنهج البروتستانتي اختلافاً جوهرياً.

فالمنهج البروتستانتي يعطي المعرفة المجردة أولاً لتكون هي الطريق والباب إلى الممارسة بعد ذلك.

المنهج الأرثوذكسي يجعل الممارسة أساساً **"تعال وانظر"**، أي **"تعال وانظر لكي تعرف"**. فالحضور إلى الكنيسة والمشاركة في القداس وممارسة الأسرار وحياة التوبة ومعاشرة الأتقياء والأمثلة الحية هي الأساس الذي تنطلق منه المعرفة، فالخبرة في المنهج الأرثوذكسي يتحتم أن تسبق المعرفة. ومن الواقع الروحي والقدوة والسلوك والنموذج الحي الذي يقدمه المنهج الأرثوذكسي تنبع المعرفة الروحية حيث تكون المعرفة هنا معرفة ملهمة. والخادم الأرثوذكسي يستخلص من الواقع الروحي الحي الذي عاشه هو والذي تعيشه الكنيسة دروساً للحياة، وهنا يتضح أن المنهج الأرثوذكسي ليس منهجاً فكرياً يقوم على المعرفة المستقاة من الكتب.

لذلك **فالمعيار الأساسي للمنهج الأرثوذكسي** هو: **لا معرفة بدون ممارسة، ولا تعليم بدون عمل مسبق، ولا سؤال قبل المحاولة والتطبيق، ولا مناقشة إلا بعد تذوق**؛ حيث تكون المعرفة دائماً أبداً منبثقة من الخبرة ومطابقة لها؛ وهنا يكون السؤال والجواب فرصة لعرض **خبرات حية** أي **لتسليم حياة** وبالتالي واسطة للامتداد في خبرات أكبر.

الشباب في الكنيسة الأرثوذكسية اليوم يحس أنه يذهب ليستقي المعرفة الروحية من أية جمعية أو أية كنيسة خارج كنيسته، هذا في الواقع نتيجة حتمية لتطبيق المناهج البروتستانتية الغربية التي أنشأت عقل الشاب على لذة المعرفة العقلية أكثر من الممارسة، فأصبح المهم عندهم أن يعرفوا

أفضل، وبالتالي فهم أحرار يذهبون وراء المعرفة الروحية الأفضل أينما وجدوها لعلها توصلهم إلى حياة أفضل. وهيهات، لأن وظيفة العقل في الروحيات أن يستوعب فقط لا أن يقود.

المنهج الأرثوذكسي لا يجري وراء لذة المعرفة بل يسعى جاهداً ليوحد الشاب في جسم الكنيسة أولاً، أي يربطه بالمسيح ومع الجماعة: جماعة الأتقياء المفديين، حتى يأخذ منهم صورة لعشرة المسيح ثم يستقيها منهم بواسطة توجيههم وإرشادهم أولاً بأول. لذة الأرثوذكسي أن يعيش مع المسيح داخل الكنيسة في ظل مثل صالح تحت رعاية أب تقي يخاف الله ليصل بواسطته في النهاية إلى قصده السعيد.

المنهج الأرثوذكسي يرفض أية معرفة روحية خارج الواقع الحي الذي عاشته وتعيشه الكنيسة، مهما كانت هذه المعرفة براقة ومشوقة، لأنها بالنهاية ستفصله عن جسم الكنيسة، عن أمه التي ولدته من سر معموديتها. القديس أغسطينوس يرفض حتى الكتاب المقدس نفسه إذا قُدِّم له أو فُسِّر له من غير الكنيسة: "أما من جهتي فأنا لا أومن بالإنجيل إلا كما يوجهه سلطان الكنيسة".

المنهج البروتستانتي غربي بطبيعته، كما قلنا، وهو يميل إلى فصل الحياة داخل الكنيسة عن الحياة خارجها، وقد سمى الحياة خارج الكنيسة بالحياة الاجتماعية. فالمسيحي البروتستانتي كما نراه في الغرب يستطيع أن يعيش حياتين، كلاً منهما لها تقليدها الخاص؛ حياة دينية للعبادة، وحياة اجتماعية ملؤها الحرية الجسدية والملذات والملاهي والانحلال.

المنهج الأرثوذكسي لا يفصل الحياة داخل الكنيسة عن الحياة خارجها. الكنيسة تؤهلني، ضمن ما تؤهلني، لكي أحيا خارج الكنيسة

كما أحيا داخلها تماماً. المسيحي الأرثوذكسي الحياة الاجتماعية عنده ليست حياة اجتماعية ذات تقليد خاص، فحياته الاجتماعية هي حياته المسيحية نفسها بكل واجباتها وتقاليدها.

البيت الأرثوذكسي كنيسة، والكنيسة بيت أرثوذكسي، وإذا اجتمعت أي جماعة أرثوذكسية في أي مكان فأول ما يعملونه يصلون ويُسبِّحون، فيجعلون المكان كنيسة.

الشباب الأرثوذكسي يحاول الآن أن ينشئ له تقليداً اجتماعياً جديداً لامسيحياً خارج الكنيسة، متشبهاً بالغرب، مخالفاً بذلك ميراثه الأرثوذكسي وتقليده الأصيل. العيب هنا يقع على المنهج الديني حيث يكون الأساس الذي بُني عليه وجدان الشاب ومزاجه الديني أساساً عقلياً. والأساس العقلي غير ثابت وبالتالي غير مُلزِم. لذلك فهو يعطي فرصة للشاب أن يتحرر وأن يعيش كما يشاء؛ في حين أن المنهج الأرثوذكسي السليم يربط الشاب بالكنيسة، وبالتالي يُخضع حريته للحق الواحد والروح الواحد الذي تستقي منه الجماعة، فيصبح الشاب له نفس تفكير الجماعة وسلوكها. فرق كبير بين أن أُلقِّن الصبي درساً عن القداس الإلهي مشروحاً ومنمقاً بنماذج ووسائل إيضاح، وبين أن أقوده داخل القداس بقدوتي وبخشوعي، ثم بعد ذلك بحياتي، التي يكون قد انطبع عليها القداس فأعطاها صورتها التقوية وسلوكها الخشوعي خارج الكنيسة.

الطريقة الأولى عقلية غربية سهلة، لا تكلف المدرس أكثر من ساعة يحصر فيها عقله لتحضير الدرس وشراء قربانة وشمعتين كوسيلة إيضاح،

هذا منهج غربي.

أما **الطريقة الثانية** فهي عملية روحية خالصة تستلزم أن يكون المدرس كنسياً بالمعنى الكامل، روحياً مخلصاً في روحياته، محباً لكنيسته مواظباً عليها بتقوى كاملة وخشوع، عاش طبقاً لنموذج حي، أي أب أو مرشد تقي، وبذلك يكون قد استلم السلوك الروحي داخل الكنيسة وخارجها ونجح في إخضاع فكره وقلبه ولسانه لروح القداس والكنيسة.

الطريقة الأولى تعطينا شاباً عارفاً بالكنيسة ولكن غير متأثر بها، مُتقناً لكل طقوسها وأسرارها ولكن غير عائش فيها، وهذا بالتالي يؤهله أن يعيش حياتين: حياة داخل الكنيسة لها صورة التقوى وحياة خارج الكنيسة اجتماعية حرة من الكنيسة، غير منطبعة بها ولا متأثرة بروحها.

الطريقة الثانية تعطينا شاباً حياً في الكنيسة ومتحداً بها، ومن حياته الكنسية واتحاده بروحها وأسرارها يستمد كل سلوكه وتصرفاته خارجها. وبذلك تصبح حياته خارج الكنيسة طاعة وتطبيقاً عملياً مباشراً لما اكتسبه بالروح من إلهامات وتوجيهات خفية داخل الكنيسة والأسرار.

وهكذا فإن برهان المنهج الأرثوذكسي الصحيح في التربية يظهر بكل وضوح في سلوك الشباب خارج الكنيسة، حيث يكون السلوك منطبعاً بالإلهام الروحي ورزانة القداسة أو بمعنى آخر أن لا يكون هناك أي أثر للثنائية أو الانحلال الاجتماعي في حياة الشباب.

الباب الثاني

في بناء الخادم

الفصل الأول

إعداد الخادم كنسياً

الخدمة بوضعها الحالي لا يمكن احتسابها خدمة من داخل الكنيسة بأي حال من الأحوال، الخدام ليسوا كنسيين، والاستثناء من ذلك قليل جداً لا يكاد يُذكر، حتى أننا نستطيع أن نقول إن الخدام كلهم ليسوا كنسيين.

وما معنى "خادم كنسي"؟

الخادم الكنسي ليس مجرد خادم درس العلوم الكنسية ونجح فيها بامتياز حسب الدرجات المرصودة، أو من الدور الثاني، أو بعد تعثرات كثيرة وملاحق، لأن روح الكنيسة لا يُدرَّس بل يُسقَى «كلكم سُقيتُم روحاً واحداً» (١كو ١٢: ١٣)، و«فكر المسيح» (١كو ٢: ١٦) لا يُستمد من الكتب، وبالتالي لا يمكن طرحه حياً في مناهج وتجزئته على علوم، بل هو مستمد من المسيح أولاً ومن المسيح أخيراً ودائماً. وفكر المسيح هو روحه «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣). صحيح أنه ينبغي أن يكون من خلال معلم وكتاب وينبغي أن يكون له شهادة، ولكن لن يكون ذلك بدون شخص المسيح الحي.

الخادم الكنسي إذن لا يمكن أن تزكيه مجرد شهادة مكتوبة، بل تُزكِّيه شهادة حية من داخل الكنيسة. المذبح نفسه يشهد له لأنه يعرفه تماماً كإنسان يطوف حوله دائماً غاسلاً قلبه وفكره وجسده بدموعه وبدم المسيح. الأواني المقدسة تشهد له وليديه الطاهرتين التي تلفها وترتبها

بوقار كثير. خورس الكنيسة يشهد له لأنه جزء حي في هارموني التسبيح، مكانه معروف في الصف، وجهه يشيع الثقة في المسيحيين، الكاهن يعتمد على وقفاته الصحيحة وصيحاته المتقنة، الشعب كله يعرف دخوله وخروجه كعمود مضيء متحرك يشيع الفرح والرضى في قلوب المصلين، ليالي الأعياد تزدهر بتسبيحه وبمعرفته لكل مناسباتها بإتقان وفهم من مردات مناسبة، وقراءات محفوظة، وألحان مخصوصة، وطقوس ذات معاني وبهاء ومجد.

الخادم الكنسي إذن لا تُزكّيه معرفة الكتب الكثيرة أو التعليم الكثير، ولكن يُزكيه روح المسيح الذي يستقيه كل يوم من الكنيسة في الصلاة وفي الأسرار وفي التسابيح ومن صوت المسيح المقروء في الإنجيل بخوف ورعدة ووقار الحضرة الإلهية.

الخادم الكنسي، إذن، لا يُزكيه الوقوف على المنابر دون أن يزكيه أولاً مكانه في خورس المرتلين وإتقانه التسبيح والخدمة بفهم وحكمة الروح، تُزكيه وقفاته الخاشعة أمام المذبح رافعاً الصليب، خادماً الأقداس ومُتناولاً من القُدْسات. أو كيف يمكن للخادم أن يعرِّف الناس بالمسيح وهو لم يستقِ من روحه؟ وهل يمكن للخادم أن يدَّعي لنفسه خدمة المسيح وهو لم يخدم بيته ولا عرف كيف يخرج ويدخل أمامه؟

الخادم الكنسي لا تُزكيه قراءاته في كتب الشرق أو الغرب واقتباساته من كل من هبَّ ودبَّ وبكل اللغات، وهو لا يعرف أن يقرأ كتب الكنيسة ويجهل لغتها ويتهيب مواقفها ويتهرب من صلواتها، وكأنما ليس له في الكنيسة مكان إلا المنبر الذي يتدرب عليه خارج الكنيسة ويختلس

الطريق إليه، لا من بابه الرسمي بل كمن يتسلّق الأسوار ويدخله من الشباك.

الخادم الكنسي لا يُزكيه صوته الحسن ومعرفته الفذة بتراتيل هذا عددها وأوزان كثيرة غربية بروتستانتية غريبة عن أذن الكنيسة لم تعرفها ولم تتعود عليها ولا تستسيغها، لها معاني جيدة ولكن روحها مستوردة لا تربط السامع بكنيسته ولا تبني النفس على التأصل في تراثها، بل تسرق الروح لتطرحها على أعتاب كنائس الغرب تلتقط الفتات من موائد أوزانها وطرائقها أولاً بأول، مع أن خزائن الكنيسة تحوي المئات من الألحان المبدعة التي باتت حزينة مهملة كعُملة ذهبية قديمة تنتقل من خزانة إلى خزانة.

الخادم الكنسي لا يُزكيه تحضير الدروس والإتقان في اختيار الآيات وطرائق الإيضاح وتسديد خانات الحضور والتناول، ولكن تُزكيه حياته داخل الكنيسة ومحبته لها وغيرته عليها وإيمانه بها وممارسته لكل طقوسها وتشبُّعه بتاريخها وقديسيها وإحساسه أنه جزء حي فيها.

ولكن ما هو الطريق إلى ذلك وما هي الضمانات؟

أولاً: الطريق العملي لإعداد الخادم كنسياً

حينما نسأل أو نبحث عن ما هو الطريق العملي للامتلاء من الحياة الكنسية، يلزمنا في الحال أن ندرك أننا نسأل ونطلب ما يفوق كل طرق المعرفة العقلية والعملية التي يسير عليها العالم، وهذا يعني ببساطة وصدق أننا داخلون في سر، سر المسيح أو سر الكنيسة.

وقبل أن ندخل في هذا السر، سر الخدمة، يلزمنا أن نفهم ونتيقن أن المسيحية ليست نظريات فلسفية، ولا هي مبادئ أخلاقية سلوكية، ولا هي مجرد طقوس وترتيبات وأنظمة، بل هي قبل كل شيء حياة، حياة جديدة، حياة طاهرة، حياة بسيطة، حياة محبة وتواضع، هدفها واحد وحيد هو **اتحاد بالمسيح وبالناس**، هذا الاتحاد أو الوحدة التي تجمعنا بالمسيح وبالناس هي هي «**الكنيسة**». لذلك فالخدمة الصحيحة تبتدئ من الكنيسة وتنتهي إلى الكنيسة، أي أن غاية الخدمة ومطلب الخدمة وسعي الخدمة من الأول إلى الآخر، هي أن يصير الخدام والمخدومون وحدة واحدة في المسيح، بالحب المتبادل، والثقة المتبادلة، والتواضع الصادق، الصغير للكبير، والكبير للصغير، حتى نرفع جميع الفوارق والحواجز التي تعطل هذه الغاية السعيدة. لأن في هذه الوحدة فقط تزدهر المعرفة وتزدهر الفضيلة وتنسكب المواهب ويرتاح الروح ويفرح المسيح ويعيش في الجميع، فتنمو الخدمة وتنمو الكنيسة.

سر الخدمة

سر الخدمة مختفي ومتوزع داخل كافة الصلوات الليتورجية داخل الكنيسة، لأن صلوات الليتورجية التي للإفخارستيا والتسابيح هي روح

الكنيسة، أو هي رئة الكنيسة التي تتنفس منها الروح القدس فيسري فيها دم المسيح لقبول فعل الحياة الأبدية، وكل من يشترك فيها يحيا ويتجدد يوماً بعد يوم.

الخادم أو المعلم في الكنيسة عليه أن يدخل أولاً إلى عمق هذه الشركة الحية، حتى يستطيع أن يكتشفها أولاً لنفسه، حتى يقدر أن يوضح أعماقها وغناها وغايتها للآخرين.

مَنْ ذا يستطيع أن يقول للآخرين «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» إن لم يكن هو قد أكل وشرب من هذا الطيب واستعلن ونظر وعاين صلاح الرب؟ التعليم أو التربية الكنسية في عرف الأرثوذكسية ينبغي أن تكون أولاً وقبل كل شيء تعليم الصلوات وتربية الروح بالليتورجية في كل نفس.

وإن أعظم ضمان لنجاح التعليم ونجاح التربية الكنسية هو في التشبُّع بالصلوات والتشبع بالقداسات قبل البدء في شرحها وتحليلها حتى يسبق التذوقُ المعرفة وتسبق الخبرةُ الفهم، أي تصير التجربة الروحية هي المنطلق الوحيد للنمو وليست المعرفة العقلية أو الفهم والمحاجاة!

وليكن معلوماً لدى كل مربي وكل معلم وكل خادم في الكنيسة، أن الحصيلة الوحيدة التي تبقى مختزنة في أعماق الطفل وتظل توجه تفكيره وسلوكه وإيمانه حتى الكبر، هي التي يتحصل عليها في اللاشعور، أي التي يستقبلها بوجدانه وليس بعقله!

وهنا تبدو الليتورجية والتسابيح والخدمات الطقسية أستاذاً كبيراً بارعاً لا يُجارَى في تغذية اللاشعور وإشباع الوجدان بكل ما هو روحي وكل ما هو جليل.

أما بالنسبة للخادم حتى وإن كان قد تجاوز مراحل الطفولة دون التشبع بالروح الكنسية، فلا يزال أمامه المجال رحباً والباب مفتوحاً على مصراعيه، لأن التعمق في الروح لا يتناسب مع الزمن بل يتناسب مع الغيرة والحرارة والحب. فمجرد اشتراك الخادم في الخدمات الكنسية بروحه وتفتُّحه للصلوات وتقبُّله لحركات الروح في القلب كفيل بانفتاح بصيرته لمعرفة الإلهيات وتعمُّقه في فهم كل علوم الكنيسة دون جهد من العقل كثير، لأن الاتضاع والوقار الذي تتسربل به النفس ويتسربل به العقل أثناء العبادة والصلوات كفيل بأن يرفع العقل فوق مستواه، حتى ليكاد الإنسان أن ينبهر من فرط التغيُّر وعمق الامتداد.

أرأيت، إذن، كيف ينفتح سر الاتضاع والوقار على الإنسان وقت الليتورجية فينفتح عليه سر المعرفة وسر البصيرة الذي يمتد بالإنسان إلى كل علم وفهم فيما يختص بالإلهيات؟

إذن، فلا تتعجب أيها الخادم حينما نقول لك إنَّ سر الخدمة يكمن في سر الليتورجيا!

ولكن ليست المعرفة والبصيرة والتعمق في الإلهيات وحدها هي الهدف النهائي للخادم كما سبق وقلنا، بل الوحدة مع الآخرين ومع المسيح بالحب. وهنا نقول إن شركة الخادم في الليتورجيا هي الفرصة الإلهامية العظمى التي يبلغ فيها الإنسان إلى عمق نفسه حيث يواجه حالة من الاتضاع الصادق الشديد الذي يهزُّ كل كيانه ويُسقط كبرياءه إلى الحضيض، وهنا ينفتح على الإنسان مجال الندامة واستعداد الصفح والحب لكل إنسان. إذن، فمن خلال الليتورجيا تسقط معطلات المحبة وبالتالي

يدخل الإنسان يوماً فيوماً في سر الوحدة العظمى مع كافة الناس ومع المسيح. وهنا تكون الخدمة قد بلغت الذروة في نجاحها، ويكون الخادم قد بلغ الغاية من رسالته.

ولكن حذار! فإن الليتورجيا في الكنيسة قد تكون ميتة وقد تكون حية، والذي يميتها ويحييها هو قلبك وصِدْقك، هو إخلاصك في دخولك إلى الله وفي ندمك واتضاعك وحبك، واستعدادك للانفتاح على الآخرين.

ثانياً: وما هي الضمانات؟

لقد أوضحنا الطريق إلى إعداد الخادم كنسياً، ولكن لكي نضمن أن يبقى الخادم كنسياً يلزم أن يدخل تحت درجة كنسية حتى يلازم الخدمة الكنسية دائماً وليقوم بواجباتها، بمعنى أنه ينبغي أن يكون الخادم صاحب درجة تتناسب مع قامته الروحية ومع تدرُّجه في الخدمة. والدرجات للخدمة في الكنيسة تبتدئ من قارئ (أناغنوستيس)، ثم إيبيذياكون أي مساعد شماس (أي مساعد خادم)، ثم ذياكون أي شماس (أي خادم)، ثم أرشيذياكون أي رئيس شمامسة (أي مقدَّم خُدام).

والحقيقة التي ينبغي أن نعلمها جيداً ونحرص عليها كل الحرص، هي أن الكنيسة لا تعرف معنى للخدمة خارج درجاتها الرسمية. فالتربية الكنسية بوضعها الحالي غريبة عن الكنيسة وخارجة على نظامها وتدبيرها التقليدي، وستبقى كذلك إلى أن يستقر داخل الكنيسة كل واحد في درجته المطابقة لخدمته والمناسبة لمؤهلاته.

ولكن من الخطر كل الخطر أن نُقْدِمَ على الرسامات قبل إعداد الخدام

وتأهيلهم للدرجات تأهيلاً كاملاً راسخاً.

وهنا تصير فصول إعداد الخدام عبارة عن خوارس ودروس تعدُّ خداماً للكنيسة بمعنى الكلمة، يشرف عليها آباء إكليريكيون وإخوة متخصصون في علوم البيعة ولغتها، ومرتلون مخلصون لرسالتهم، وآباء روحيون.

ويقسَّم المنهج بالنسبة للخدام إلى أربعة مستويات واضحة تتناسب مع الأربع الدرجات الرسمية للخدمة داخل الكنيسة من قارئ إلى رئيس شمامسة.

ولا ينتقل خادم من رتبة إلى رتبة أعلى إلا بامتحان رسمي وتزكية مكتوبة وتحت ضمانات وتعهدات من المتقدِّم للرتبة، ومن الذي يقدِّمه حيث يكتب اسمه في سجلات الكنيسة التابعة لها، ويسلم له شهادة في يده تخوِّله تأدية كل فروض وظيفته التي تحدد له.

وبذلك يكون رئيس الشمامسة (أمين مدارس الأحد) مسئولاً مسئولية كنسية أمام الله والأسقف عن كل الشمامسة (الخدام)، عن كل الإيبوذياكونيين (المقيَّدين في فصل إعداد الخدام)، أما القراء (الأناغنوستيسيون) فهم الشبان المقيدون بالفصول الكبيرة وذلك بعد تأديتهم للامتحان والتزكية المطلوبة لهذه الرتبة.

والمعروف أن كل طغمة الشمامسة تتبع في تدبيرها رئيس الشمامسة، ورئيس الشمامسة يتبع في تدبيره الأسقف مباشرة.

والواقع أن الكنيسة لم تترك شاردة ولا واردة بالنسبة لنظام وتدبير طغمة الشمامسة إلا أوضحته وقطعت به، فالأمر لا يحتاج إلى استنباط قوانين أو تغيير أو تعديل بأي وجه من الوجوه، ولكن لا يعوزنا إلا

التطبيق واحترام قوانين البيعة.

ولكن نعود فنكرر أن قيمة هذا النظام الكنسي متوقفة على جدية الآخذين به وعلى الإخلاص في تأدية واجباته لأنه باب حقيقي مؤدي إلى الحياة الأبدية.

الفصل الثاني
بناء الخادم نفسياً

(١)

إن أكبر عقبة تقف الآن في طريق الخدمة لتمنعها من النمو نمواً روحياً أصيلاً حسب الإنجيل وروح الآباء، هي ضعف المستوى الروحي عند الخدام عامة.

أما السبب الرئيسي لضعف المستوى الروحي العام عند الخدام فهو **ضعف البناء النفسي**، لذلك تحتم علينا أن نخوض في البناء النفسي لشخصية الخادم قبل أن ندخل في البناء الروحي.

فمن الأمور المعروفة جداً والمسلَّمة إلينا من الآباء، أن النفس السوية هي وحدها التي تؤهَّل أن تكون روحانية، وهي التي يتكشف الحق الإلهي أمامها. أما النفس المحمَّلة بالعيوب والضعفات والأخطاء، فمن المستحيل أن يرتاح فيها الروح القدس أو تبصر النور بوضوح. ونحن حينما نقول العيوب والضعفات والأخطاء النفسية، لا نريد أن نخوض الآن في الخطايا الفردية المعروفة، القادرة أيضاً على إفساد النفس البشرية وحجز النور الإلهي عنها مثل: الكذب، والرياء، والبخل، والطمع، والوشاية، والنجاسة، والكبرياء، والعظمة المفتخرة في قالب تواضع، والاعتداد بالذات، ومحبة الذات، والجري وراء مديح الناس، وبقية الخطايا التي تلاحق الخدام وغير الخدام على السواء، فهذه نتركها الآن لأنها معتبرة خطايا فردية أو ربما نحيل علاجها إلى أبواب أخرى غير باب الخدمة.

لكن نود أن نفرِّق هنا بين الخطايا الفردية والعيوب النفسية بالنسبة للخادم، فالفرق بينهما كبير مثل الفرق بين مرض يصيب العين كالرمد وبين قصر النظر، فالرمد مرض فردي أما قصر النظر فهو عيب عام وظيفي، وإذ نحن هنا بصدد الخدمة عامة، فلا ينبغي أن يسترعي اهتمامنا إلا العيوب العامة أولاً.

والآن ما هي العيوب أو الضعفات أو الأخطاء النفسية العامة المشتركة بين الخدام التي تفسد حال الخدام والخدمة وتوقف نموها الروحي وتحجز النور عنها؟

سنكتفي هنا بعرض ثلاثة عيوب نفسانية بالنسبة لجيل الخدام:

١- روح التبعية.

٢- روح التحزب الفكري والعاطفي.

٣- روح الأخلاق الأسرية.

أولاً: روح التبعية:

الخدام في هذه الأيام – لا نقول الشباب بوجه عام بل الخدام – ميَّالون بصورة جارفة أن يتبعوا: أي تعليم، أي شخص، أي فكرة، يتبعوا وحسب.

هذه الظاهرة واضحة في جيل الخدام المعاصر الصاعد، ولم تكن موجودة في الجيل السالف المخضرم. الجيل السالف كان يتميز بالشخصيات، وبكل إعزاز واحترام نقول إنها كانت ولا تزال شخصيات ناضجة مستقلة مكافحة متزعِّمة في الخدمة، أغلبهم تكرَّس، ومنهم الآن الأساقفة الأجلاء والكهنة المؤتمنون، والرهبان، والأراخنة العلماء الذين

أدوا للكنيسة خدمات جليلة. أما جيل الخدام المعاصر فهو مفتقر أشد الافتقار إلى المقوِّمات أو المميزات الخاصة بالشخصية، فهو عوض الاستقلال الذاتي يسوده الآن روح الاندماج والانتماء، فما هي علة هذا القصور؟ هناك عدة عوامل أدت إلى هذه "الطَبْخة" غير الناضجة من الخدام:

العامل الأول: قلة القادة بالنسبة للأعداد الضخمة من الشباب. والمعروف أن إعداد الخدام ليس مجرد إلقاء عظات وحضور قداسات أو تدريس برامج في سنة أو سنتين، ولكن إعداد الخدام يحتاج إلى حياة مشتركة يأتلف فيها الخدام المبتدئون مع قائدهم أو معلمهم الروحي، يختبر قدراتهم، ويصحح عيوبهم، ويعدِّل أفكارهم، ويبني مداركهم، ويضع لكل واحد أسس شخصيته، ويباشر نموهم، حتى تكمل ملامح شخصية كل واحد منهم بحسب مواهبه؛ وبتكامل الشخصية يتأهل الواحد منهم للخدمة.

العامل الثاني: جنوح بعض القادة والمعلمين إلى فرض شخصياتهم لتكون واجهة حتمية أو باباً أوحد للمعرفة، فانطبعت نفوس الخدام بالشخصيات المعلمة أكثر من انطباعهم بالتعليم، فصار الانتماء لشخصية المعلم أو الأب التزاماً أساسياً لقبول تعليمه، وهذا تسبب في مسخ تدريجي للمميزات أو المقومات الأساسية اللازمة لبروز شخصية الخادم، فعوَض الشخصية المستقلة سرت روح التبعية أو الانتماء لشخصية المعلم أو الأب.

العامل الثالث: نوع التربية المنـــزلية منذ ستين عاماً تقريباً ساعدت

بدورها على مسخ الشخصية، إذ كانت تتميز بالدكتاتورية التربوية، فالآباء منذ ستين سنة كانوا معتزين بمعرفتهم التقدمية، وقد أخذوا في تطبيق أساليب التربية لطبع شخصيات أولادهم بالصورة الدينية والأخلاقية التي تروق لتخيلاتهم دون اعتبار لاستعدادات الطفل ومواهبه، وبذلك اشترك الآباء في عملية مسخ شخصية الجيل منذ الطفولة.

العامل الرابع: هبوط مستوى ممارسة الاعتراف والإرشاد الروحي من الجهتين أي من جهة المعرِّف ومن جهة المعترف.

فمن جهة المعرِّف (أب الإعتراف) أو المرشد فمعظم المُعرِّفين والآباء المرشدين يتبوأون مراكز المعرفين قبل بلوغهم الدرجة الروحانية المناسبة التي تؤهلهم لحمل هذه المسئولية الخطيرة، مع أن الثابت في طقس الكنيسة أن لا يرقى الكاهن إلى درجة مُعرِّف إلا بعد بلوغه الخمسين، على أن تكون بوادر الحكمة الروحية والإلهام والمعرفة وانفتاح البصيرة لكشف النفس وتطبيبها قد وضحت في تصرفاته وحياته، على أن يُعطَى حلاًّ بهذا من الأسقف بعد صلاة خاصة تُقرأ عليه. وكان يسمى في الكنيسة "الشيخ المؤتمن"، ويكون له امتياز في الكنيسة واحترام كامل من الشعب.

ولكن الحاصل الآن، أن أي شاب يُرسم كاهناً اليوم، ثم يأخذ اعترافات غداً. وممكن أن يدخل شاب الدير وهو لم يتجاوز بعد سن الشباب ليبدأ حياة توبة بكل صدق وإخلاص واضعاً في قلبه أن لا ينـــزل إلى العالم أبداً، ولكن دون أن يدري هو ودون أن ندري نحن، نجده بعد سنة أو سنتين في وسط العالم يأخذ اعترافات. والسؤال الصارخ الآن: كيف يمكن للمعرِّف أن يبني شخصيات الناس وهو هو

نفسه يعاني من ضعف ومن أتعاب، ولم يبلغ بعد الدرجة الروحانية التي تؤهله أن يأخذ هذه المسئولية الخطيرة، مسئولية خلاص نفس! ولادة روح! بناء شخصية!؟

ومن جهة المعترف أو المرتشد، فالخدام وجدوا في الاعتراف والإرشاد، في هذه الأيام، فرصة مواتية لتكميل خَلْع ما تبقى من شخصياتهم!! فالاعتراف الآن أصبح عذراً رسمياً يختفي وراءه الخادم ليبرر تصرفاته الشخصية، فيكفي أن يقول الخادم: "أبي في الاعتراف قال لي..."، هذا لكي يتنصل من كل مسئولية، ألم يوصِ الآباء والمعلمون بالطاعة الكاملة العمياء؟ إذن فالتخلص مما تبقى من الشخصية ليس فيه فقط راحة من حمل همِّ مسئولية التصرفات الشخصية بل ومُعتبَر أنه فضيلة أيضاً. وهنا يتبارى الخدام الآن وبتشجيع من المرشدين والمعرِّفين لخلع شخصياتهم والاستعاضة عنها بالتبعية لشخصية المرشد أو الأب.

ثانياً: روح التحزب الفكري والعاطفي:

وهذا العيب النفساني يُعتبر نتيجة مباشرة للعيب الأول الذي هو روح التبعية، فالتبعية للأشخاص تنشئ حتماً التعصب والتحزب لها. وللأسف هذا العيب أصبح عاماً وقد شمل معظم الخدام أو كلهم تقريباً. فما من خادم تقابله أو تتحدث إليه إلا وتجده تابعاً، وفي تبعيته تجده متحزباً، وفي تحزبه تجده متعصباً. وهذه في الحقيقة مُحصِّلة ختامية لفقدان الشخصية، ففاقد الشخصية يتحتم عليه أن يتحزب لشخصية أخرى يتمسك بها ويتعصب لها إلى أقصى حد لأن بوجودها يؤمِّن وجوده وبدونها يفقد كيانه.

وهنا التحزب بالنسبة للتابع إما أن يكون فكرياً وإما أن يكون عاطفياً، وهذا يعتمد على نفسية الخادم التابع وصحته العقلية، فإذا كان الخادم التابع ناضجاً عقلياً كان تحزُّبه عاطفياً، وإذا كان ناضجاً نفسياً كان تحزُّبه فكرياً، أما إذا كان ناضجاً نفساً وعقلاً فإنه مستحيل طبعاً أن يكون متحزباً لأنه لن يكون تابعاً.

والتحزب في الخدمة وبين الخدام، على أي وجه كان، مُفسد للروح المسيحية أشد الإفساد، وهو كفيل بأن يلغي رؤية المسيح تماماً حيث لا يعود ممكناً أن يتطلع الخادم إلى المسيح بوجه مكشوف لأن برقع الأشخاص يحجز ويمنع!

وبولس الرسول يقطع في عدة مواضع من رسائله[٤] أن التحزب للأشخاص والأسماء علامة أكيدة على تدهور المستوى الروحي عند المؤمنين، ويَعتبر ذلك وصمة على العبادة ويُخرجها عن مفهوم العبادة الروحية.

ثالثاً: عدم القدرة على الانسلاخ من أخلاقيات الأسرة:

ظاهرة أخرى تكاد تكون عامة بين جيل الخدام الجديد، وهي عدم قدرة الخادم على الانسلاخ من أخلاقيات وعادات أسرته، فيدخل حقل الخدمة حاملاً في تفكيره وسلوكه كثيراً من نقائص أخلاقية لا ذنب له فيها، ولكن لا مفر من القول إنها تشكل خطورة على مستواه الروحي، بل وتجعله غير مناسب للخدمة الروحية على وجه العموم. ومن هذه

---

(٤) ١كو ١: ١٠-١٧ و١كو ٣: ١-٤.

الأخلاق والعادات نذكر الآتي:

١- سوء معاملة الخدم واعتبارهم دون مستوى الناس، ويظهر ذلك في حرمانهم من أبسط المجاملات وفي أردأ أنواع الأكل الذي يُقدَّم لهم، وفي عدم الحفاظ على شعورهم أو الاهتمام بصحتهم أو تثقيفهم أو الاهتمام بمستقبلهم، بل ومحاولة التخلص من الالتزام بحقوقهم من تأمينات ومكافآت بطرق ملتوية مخجلة. ونحن نضع هذه النقيصة في المقدمة لأنها كفيلة أن تهبط بمستوى الخادم إلى الحضيض.

٢- التباهي بأصل الأسرة والافتخار بالحسب والنسب والألقاب ونقاوة العرق، وهذا من شأنه أن يطبع روح الخادم بالتعالي والاعتداد بالذات والإحساس بالتفوق والامتياز. وهذا العيب الأخلاقي إذا لازم الخادم فهو كفيل أن يعزله باطنياً عن البيئة التي يعيش ويخدم فيها، فتجده، بالرغم من انهماكه المظهري في خدمة الشباب أو الفقراء، يظل غير متجاوب معهم شعورياً ولا يستطيع أن ينـــزل إليهم نـــزولاً صادقاً أميناً بقلبه وعواطفه. وبذلك تظل خدمة تعالي وإحسان وترحُّم وشفقة، وليست تنازلاً وبذلاً ومحبة وإماتة ذات، وهذا كفيل أن يمسخ روح الخدمة والمخدومين ويُنهي على كل أمل في نموها الروحي. وبينما يزداد الخادم تعالياً بمقدرته واعتداداً بذاته بسبب نجاح الخدمة الظاهري تظل الخدمة فقيرة في الروح.

٣- روح الانعزال والتكتل، من طبيعة الأسرات القبطية أنها تحاول أن تعيش في انعزال حتى عن بقية الفروع الأخرى للأسرة ذاتها. والانعزال يُنشئ بدوره روح التكتل الداخلي. فإذا امتص الخادم هذه الروح ولم يستطع أن ينسلخ عنها في الوقت المناسب، فإنها تصبغ

شخصيته ثم خدمته كلها بحيث يصبح همُّه الأول هو عَزْل فصله عن بقية الفصول إن كان خادماً، أو عزل الفرع كله عن بقية الفروع إن كان أميناً عاماً. ثم تعاد الكرَّة مرة أخرى مع أصدقائه ومريديه والشبان الذين يترددون عليه محاولاً بطرق خفية ومكر نفساني وتخويفات وتهويلات أن يعزلهم عن بقية الذين لا يتبعونه، ثم يحاول أن يُكتِّلهم ضد الآخرين ليضمن بقاءهم معه. والنتيجة المحزنة هي امتصاص الشبان أنفسهم لهذه الروح الانعزالية وفقدانهم إمكانيات الأُلفة والمحبة والاتحاد مع الآخرين لتكوين وحدة عامة روحية، التي هي هدف الخدمة الأعظم، والصفة الأولى والجوهرية للكنيسة وغاية المسيح النهائية على الصليب!

٤- روح التسلط: وإن كان هذا العيب النفساني ليس بدرجة الشمول كبقية العيوب السابقة إلا أنه يشكل ظاهرة خطيرة بين كثرة الخدام. فكثير من الآباء في الأسر القبطية من محبي التسلط والاستبداد، الذين ينكرون أبسط حقوق الحرية على أولادهم حتى ولو بلغوا الرجولة، ولا يكون أمام هؤلاء الأولاد (الذين أصبحوا جيل الخدام الآن) إلا أن يخضعوا صاغرين مكرهين أمام عنف الآباء وسطوتهم الشديدة.

ولكن هذه الصراعات الحادثة داخل الأسرة لا تمر ببساطة، فالأولاد يمتصون هذا التجبُّر عينه ليصبح جزءاً من ميراثهم الأخلاقي الأُسري. فإذا ما أصبح أحد هؤلاء الأولاد الضحايا لتسلُّط الآباء وتجبُّرهم، إذا ما أصبح خادماً يوماً من الأيام، فحالاً يباشر التنفيس عن مكتوماته الأخلاقية، وتبدأ روح التسلُّط عينها والاستبداد تظهر بوضوح في خدمته، إنما متقمصة صورة تَقوية أبوية، فيبرر تسلطه بغيرته الشديدة على الخدمة، ويبرر تجبره على نفوس الشبان بادعائه الغيرة عليهم

أو عطفه على مستقبلهم، ولكي يضمن استمراره في تجبُّره ويؤمِّن خضوعهم له يبدأ يكلمهم عن الطاعة وضرورة الطاعة وأهمية الطاعة وفضيلة الطاعة، كما كان يعمل أبوه أو أخوه الكبير معه تماماً.

والنتيجة المحزنة هي تعميم هذا العيب أو بالحري هذه المصيبة النفسانية، التي كانت مدفونة في حدود عائلة صغيرة، لتصبح وباءً يعمُّ أثره السيء على شخصيات شبان كثيرين ليعيق نموهم الروحي في الحرية البنوية التي هي أثمن هبات المسيح للكنيسة.

وإلى هنا نكتفي بهذه الصور المحزنة لأنواع الضعفات النفسانية التي تسببت في الهبوط المباشر لمستوى الخدام والخدمة بوجه عام. أما الحلول الروحية لهذه المشاكل النفسية فنرجئ الحديث عنها إلى الفصل القادم تاركين الفرصة أمام كل خادم ليناقش هذه الأمور مع نفسه.

الفصل الثالث

بناء الخادم نفسياً

(٢)

توجيهات إيجابية

تكلمنا في الفصل السابق عن بعض العيوب النفسية التي تعيق الخادم والخدمة. وهنا نحاول أن نتغلب عليها بتوجيهات إيجابية في الخدمة نفسها.

فإذا تقومت شخصية الخادم تقوَّمت الخدمة.

مقوِّمات شخصية الخادم

وهنا لا نتعرض لمقومات الشخصية بوجه عام، ولكننا نقتصر على شخصية الخادم.

فما هي مقومات شخصية الخادم الناجح؟

١- الخادم الناجح إنسان له **هدف** روحي في خدمته، محدد وواضح، يؤمن به، ويحبه ويجد فيه سعادته.

٢- الخادم الناجح إنسان له **مثل أعلى روحي**، يضعه أمام عينيه على الدوام، يشدُّه نحو الهدف الذي يسعى إليه ويجمع عواطفه ويلهب إرادته إذا فترت، للمثابرة على العمل.

٣- الخادم الناجح إنسان له **إرادة** نشيطة مرتبطة بالهدف والمثل الروحي إرتباطاً شديداً.

٤- الخادم الناجح إنسان **يعمل** بكل عواطفه وإرادته لتحقيق هدفه ويجد في ذلك سعادته.

١- هدف الخادم:

وضعنا **الهدف** بالنسبة للخادم في المرتبة الأولى لأنه يجمع شتات الشخصية مهما كانت مبدَّدة ومبعثرة. فبمجرد ظهور هدف واضح في أفق حياة الإنسان، تبتدئ شخصيته تنجمع على ذاتها، فتتحدد إرادته وتظهر عواطفه وينكشف مثله الأعلى. وبالعكس أيضاً إذا ضاع الهدف من حياة الخادم، انحلت إرادته وتبددت عواطفه واختفى مثله الأعلى، وأخيراً تنفك شخصيته وتتحلل.

أي أن الهدف الروحي ووضوحه في حياة الخادم هو المسئول عن تماسك شخصيته أو تحللها. والفرق بين شخصية متحللة وشخصية متماسكة كبير للغاية في الحياة الروحية، لأن الشخصية المتماسكة ذات الهدف والإرادة والعواطف والعمل النشيط والمثل الأعلى، تكون شخصية منضبطة، لا تلعب بها الغرائز، ولا تكون تحت سيطرة الانفعالات. أما الشخصية المتحللة التي أصبحت بلا هدف يشدُّ إرادتها ويجمع عواطفها ويدفعها للعمل بنشاط، فهي شخصية غير منضبطة تتحكم فيها الغرائز والعواطف الهوجاء والانفعالات المكبوتة.

لذلك نقول، إن أعظم توجيه يمكن أن يقدَّم للخادم الذي يشكو من ظروف تكوينه النفسي ليتغلب على المؤثرات التي أحاطت به وليصبح ذا شخصية متماسكة منضبطة حرة متسامية فوق الغرائز والانفعالات، هو أن يحدد لنفسه هدفاً في خدمته بحيث يصبح هذا الهدف واضحاً جداً أمام عينيه.

علماً بأن الخدمة في حد ذاتها لا تصلح أن تكون هدفاً، بل يلزم أن يكون الهدف أعلى من الخدمة. **فماذا يكون الهدف من الخدمة؟**

معروف أن كل خدمة يقوم بها أي إنسان إما يكون هدفها المنفعة الشخصية بأي لون من الألوان، وهذا لا يمكن أن يكون هدفاً روحياً على الإطلاق، وإما يكون هدفها بدون منفعة شخصية، وهذا معناه أن تصير الخدمة محبة وبذلاً فقط. فنحن إذن لسنا مخيَّرين في انتخاب هدف لخدمتنا، إذ يلزم بصورة حتمية لكي يكون هدف الخدمة روحياً وبدون منفعة شخصية أن يكون محبة وبذلاً فقط، ولكي يكون هذا الهدف خالياً من حركات العواطف وسيطرة الانفعالات، **يلزم أن يكون مقدَّماً حباً في الله أولاً، ثم حباً لكل الناس بلا تمييز.**

وهكذا ننتهي إلى أنه يتحتم على الخادم الذي يريد أن تكون له شخصية سوية في الخدمة، أن يضع أمام عينيه الهدف من خدمته بصورة واضحة ودائمة. على أنه لا يمكن أن يكون للخادم هدف صحيح في خدمته إلا المحبة في صورة البذل — بدون أية منفعة شخصية — إنما حباً في الله كالوصية، بحيث يكون الخادم حساساً ليكشف أي ميل في نفسه تجاه أية منفعة ذاتية من خدمته، فيبترها في الحال. لأن قبول أي منفعة بأي شكل من الأشكال، كفيل بأن يجعل هدف الخدمة مُزيَّفاً، فتصبح الخدمة وبالاً على شخصية الخادم، إذ تبنيه على الأثرة — أي حب الذات — ويصبح كل سعيه وجهاده ونشاطه في الخدمة من أجل حب نفسه وليس حباً في الله، وهنا لا يمكن أن يسمَّى البذل بذلاً روحياً بل تجارة، لأنه على قدر العطاء يكون الربح، وبازدياد الربح تزداد الغيرة في البذل، وهكذا تدور الخدمة في حلقة الذات المفرغة. **وهنا يبدو لنا ضرورة المثل**

الأعلى الذي يضبط الحب الباذل، أي هدف الخدمة، ويصححه أولاً بأول.

٢- المثل الأعلى:

يمكن أن يكون للخادم أمثلة كثيرة للبذل في الخدمة يحقق بها ذاته ويزكيها. فهو يمكن أن يكون كبولس الرسول الذي خسر كل شيء وحَسِبَ كل شيء نفاية من أجل المسيح وخدمته، ويمكن أن يكون كاستفانوس الذي سلَّم الجسد للرَجْم ثمناً للنطق بالحق والشهادة للمسيح، ويمكن أن يكون كأثناسيوس الذي وقف ضد العالم كله ليحفظ وديعة الإيمان إلى النفس الأخير. وهكذا أمثلة لا حصر لها، وهذه الأمثلة كلها تشجعنا جداً وتلهب إرادتنا وتجمع عواطفنا وتدفعنا للعمل في الخدمة بلا كلل، ولكن نخاف لئلا يحدث أن النفس تتحول خلسة من النظر إلى بذل هؤلاء الرسل والشهداء وبقية الخدام المشهورين إلى النظر لشهرتهم وصيتهم الحسن، فتتحول الخدمة إلى استعراض قدرات للفوز بتقليد هؤلاء الأبطال لاكتساب شهرة كشهرتهم وصيتاً كصيتهم، لأجل هذا قال بولس الرسول: «كونوا مُتمثِّلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح» (١كو ١١: ١)، أي: إن أردتم أن تتشبهوا بي، فانظروا كيف تشبَّهت أنا بالمسيح.

لذلك، فلا مفر أمامنا من البحث عن مثل أعلى لا نستطيع أن نحقق من ورائه أي تثبيت جديد لذواتنا، بل يكون مجرد التشبُّه به موتاً لذواتنا، **فماذا يكون هذا المثل إلا يسوع المسيح؟** هذا هو وحده الذي إن عاش فينا حقاً مُتنا عن ذواتنا بالحقيقة! «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل

٢: ٢٠). لذلك جيد للخادم أن يعيش فيه يسوع المسيح، في فكره، في قلبه، في روحه، في أعضائه، كمَثَله الأعلى في الخدمة، في البذل، في الحب المجاني، لأن المسيح مَثَل واضح غاية الوضوح للخدمة وللبذل الذي بدون منفعة شخصية:

+ أُنظره وهو يجول يصنع خيراً، والكل يتزاحم حوله ويقبِّل يديه ورجليه وثوبه، وهو منهمك في عمل الرحمة بدافع المحبة الخالصة، غير ملتفت إلى نفسه بل ملتفتاً إلى الصليب الذي وُضع له في نهاية طريق الخدمة كإكليل حقيقي.

+ أُنظره وهو يتحدث إلى تلاميذه بكل حب وإشفاق، ويهوذا جالس في وسطهم والرب ينظر إليه ويحدثه هو أيضاً بنفس الحب والإشفاق، غير ملتفت إلى يوم الخيانة أو قُبلة التسليم أو صُرة الثلاثين من الفضة؟

+ أُنظره وهو يمرق من وسط المعجبين بكلامه وأعماله ويتحاشى الأيدي الممتدة لتمسكه وتجعله ملكاً، لأنه للموت جاء لا للجلوس على كراسي المُلك والعظمة؟

+ أُنظره وهو مهان ومذلول، مضروب مُعرَّى، حاملاً صليبه إلى مكان الصلب ليكمل إرادة المحبة والآب الذي أرسله؟

لا يمكن أن يكون لنا مَثَل للخدمة والبذل والحب وطاعة الله إلا المسيح يسوع ربنا. إنه وحده المثل الكفيل بأن يمتص كل ما فينا من ذات نفعية وغرور وطموح كاذب.

وإن كان أي مثل أعلى يحبه الإنسان ويُخلص له كفيلاً أن يُنشِّط الإرادة ويسيطر على فكر الإنسان ويدفعه للعمل باجتهاد، فالمثل الأعلى للخادم – وهو يسوع المسيح نفسه وقد انطبعت صورة وجهه المكلل

بإكليل الشوك في القلب على الدوام – كفيل أن يلهب الإرادة بالغيرة كالنار، فلا يعود الخادم يعرف لنفسه حدوداً في الحب أو البذل، وتصير عنده أصعب الخدمات وأشقاها سهلة لذيذة يجترئ عليها، حتى ولو كانت ضد طبيعته، حتى ولو كَمَنَ الموت فيها.

لذلك فإن كان المثل الأعلى ضرورة لتنبيه الإرادة عند أي إنسان يجاهد من أجل الوصول إلى هدف معين، فيسوع المسيح كمثل أعلى بالنسبة للخادم يُعتبر ضرورة حتمية لضمان حفظ الإرادة متّقدة نشيطة طاهرة من عيب الذات لتكميل الهدف الموضوع أمامه.

كذلك فإن كان غياب المثل الأعلى عن عين أي نفس كفيلاً أن يطفئ حرارة الإرادة في السعي وراء الهدف، فغياب يسوع المسيح عن عين الخادم كفيل أن يحل الإرادة من الهدف المقدس، وحينئذ يعطي الفرصة للأهواء والنـــزوات والانفعالات أن تسود وتتحكم في الإرادة وفي التصرفات جميعاً.

إذن فربط الهدف في الخدمة وهو **البذل** بيسوع المسيح **كمثل أعلى**، يُعتبر الحجر الأساسي في بناء نفسية الخادم وأكبر ضمان لحفظ الإرادة في أعلى كفاءتها.

٣- الإرادة النشطة:

الإرادة وجودها مربوط دائماً بوجود الهدف، ونشاطها رهن بوضوح المثل الأعلى في القلب من حين لآخر. فإذا كان هدف الخدمة أي المحبة الباذلة واضحاً ومحبوباً لدى الخادم، وإذا كان المثل الأعلى للمحبة الباذلة وهو شخص يسوع المسيح واضحاً ومحبوباً أيضاً، فإن الإرادة تكون

متنبهة دائماً وفي حالة تحفُّز ونشاط وقوة.

وهكذا إذا بدا على إرادة الخادم أعراض من الضعف والانحلال، فينبغي في الحال مراجعة أصالة الهدف وصدق المثل الأعلى، لكي يتحقق أن المحبة والبذل هما فعلاً هدف الخدمة عنده وأن يسوع المسيح مثله الأعلى الحقيقي.

أما ضعف الإرادة عند الخادم، فهو يكشف عن عدم وضوح رؤية المثل الأعلى أي المسيح. وأما انحلال الإرادة فإنه يكشف عن ضياع الهدف بأكمله. أي زوال محبة البذل. في حين أن الإرادة القوية تكون برهان وجود هدف واضح ومثل أعلى محبوب. فالخادم ذو الإرادة القوية هو الذي صمَّم بالفرح على البذل والمحبة مهما كانت الظروف المعاكسة، ووضع المسيح أمام عينيه كمثل أعلى لا يحيد عنه.

ومعروف أن الإرادة تتبعها العواطف وتلتحم بها، فالإرادة في حد ذاتها كأُم، والعواطف كأولاد لها، فإذا كانت الأم قوية ونشيطة فإنها تتحكم في أولادها، هكذا الإرادة القوية النشيطة فإنها تتحكم في عواطف الإنسان وتجمعها كلها تحت سيطرتها لتعمل وتجاهد بها. أما الإرادة الضعيفة فإن العواطف تفلت من زمامها لتسوق الإرادة والإنسان كله كيفما تشاء. لذلك فالقوة التي نستمدها لإرادتنا في الخدمة من تثبيت الهدف على المثل الأعلى الذي نحبه، وهو المسيح، تجعلنا نُسيطر على عواطفنا ونوجهها كلها لحساب الهدف أي محبة البذل، كرامة وحباً لمثلنا الأعلى الذي نعيش له ونقتفي آثاره.

ومعروف أيضاً أن الإرادة هي التي تسيطر، لا على الخدمة فقط، بل على كل أمور الحياة العادية. لذلك كلما وجهنا عنايتنا للإرادة، كان

ذلك بمثابة تقوية شاملة لبنيان الشخصية وزيادة كفاءتها في مواجهة أعباء الحياة كلها وبالتالي الخدمة. وينبغي أن نعلم أن الإرادة ليست شيئاً له وجود في حد ذاته، ولكنها محصِّلة العواطف والدوافع المهذبة والمقبولة عند الإنسان. لكن ضد الإرادة تقف الخبرات المؤلمة والعواطف والدوافع الغريزية غير المهذبة وغير المقبولة التي رفضها الإنسان أو أهملها، وهي كلها يسميها العلماء بـ"**العُقَد المكبوتة**"، وهذه تقف خلف الإرادة وتقاومها وتضعفها وتطفو أحياناً فوق سطحها فتسيء إلى سلوك الإنسان وشخصيته، ولا يمكن تصفية هذه العُقد وتقوية الإرادة إلا بالعمل، العمل الروحي الصحيح والمتواصل تحت تدبير أب روحي يوجه العمل ويغذي العواطف بالمثل العليا الصحيحة والوعظ المريح للنفس.

٤- العمل الروحي:

لا يوجد في جميع وسائل بنيان شخصية الإنسان وتقوية إرادته مثل العمل، العمل على وجه العموم وخصوصاً إذا كان مع آخرين، وعلى مستوى الحركة والنشاط، وتحت ملاحظة أب أو مُدبِّر أو رائد ناضج. وبالأكثر جداً إذا كان العمل هو الخدمة الروحية من تعليم وافتقاد وعطف على الآخرين فيكون هذا بحد ذاته أعظم خدمة نقدمها لنفسية الخادم نفسه، فالخادم الذي يعلِّم الآخرين لا حباً في التعليم أو الظهور ولكن عن محبة البذل، ويفتقد الآخرين لا بإحساس المتفضِّل والكبير بل بإحساس المشاركة الوجدانية مع الآخرين، ويعطف على الضعفاء والمرضى والفقراء لا بدافع الواجب بل بدافع المحبة الروحية التي يستقيها من مثله الأعلى، فإن هذا العمل الروحي بالنسبة للخادم سوف يعيد بناء

شخصيته ويقوي إرادته ويصفي كل عُقَده وأتعابه النفسية يوماً بعد يوم، خصوصاً إذا كان الأب الروحي على وعي كامل بدقائق خدمة الخادم وظروفها ومقدار نموه.

والعمل الروحي الذي يقوم به الخادم كل يوم وعلى مدى الأيام كلها، هو وحده الكفيل أن نقيس بواسطته صحة الهدف الذي وضعه الخادم غاية لحياته الروحية كلها، ومقدار صدق المثل الأعلى الذي اتخذه لنفسه ومدى قوة الإرادة التي يسيطر بها على عواطفه وانفعالاته.

فمستوى أمانة الخادم في أداء عمله يكشف عن عمق الهدف عنده، أي عمق المحبة الباذلة.

ومستوى الحرارة والغيرة التي يؤدي بها خدماته، تكشف عن مدى تمسك الخادم بالمسيح كمثله الأعلى.

ومستوى نشاط الخادم ومثابرته وصبره ورزانته في ممارسة خدماته تكشف عن مقدار سيطرته على إرادته.

ومستوى نمو شخصية الخادم وتقدُّم بنائه النفسي والروحي يكشف عن صحة وجدية العمل الروحي الذي يقوم به.

+ وهكذا نجد أن الخادم يكتشف في الخدمة الروحية إمكانياته الروحية والنفسية كلها.

+ وإن كل ضعفات الخادم النفسية بقدر ما تكشفها الخدمة بقدر ما تتولى الخدمة نفسها إصلاحها وإعادة بنائها.

+ وهكذا فإن بناء الخادم نفسياً لا يتم إلا من داخل الخدمة وبواسطتها، وإنما كل ما نلحُّ عليه هو المثابرة والرعاية الروحية.

الفصل الرابع

البناء الروحي للخادم

(١)

مقدمة

نحن لا نعرض هنا للبناء الروحي العام للشخصية المسيحية، ولكننا نقتصر بنوع مخصوص على بناء الخادم روحياً بالقدر الذي يكفل له المقدرة على بناء الأطفال والشباب.

لذلك فنحن نفترض هنا أن أمامنا مجموعة من الخدام متباينة الاستعدادات والكفاءات والمواهب الروحية نريد أن نبنيها روحياً.

فما هي الخطوط الروحية الأساسية التي تحدد الإطار العام للمناهج اللازمة لتدريس ورعاية هؤلاء الشبان ليصبحوا خداماً روحيين؟

ينبغي هنا أن نعلم يقيناً أن "الروحانية المسيحية" حسب منطق التقليد الأرثوذكسي ليست شيئاً يُكتسب بالاجتهاد الشخصي، أو بمجرد دراسة الكتاب المقدس والتأمل في آياته ورواياته، وتصفُّح بعض الكتب الروحية؛ ولكن الروحانية المسيحية في المفهوم الأرثوذكسي هي تقليد تسليمي يشمل:

أولاً: "الحياة النسكية": بصلواتها المقررة، **وأصوامها** الرسمية، وممارسة العبادة والاشتراك في الأسرار داخل الكنيسة في مواعيدها المحددة ومواسمها أولاً بأول بكل دقة وانتظام.

ثانياً: ثم يلي بعد ذلك: **التمكن من العقيدة** التي تُلقّن الشخص ما ينبغي أن يؤمن به ويتمسك به قلبياً تمسكاً لا يزعزعه أي شك أو إرهاب حتى الموت.

ثالثاً: التبحُّر أولاً بأول في **أصول السلوك المسيحي**، أي ما ينبغي أن يُقال ويُعمل، وما لا ينبغي أن يُقال أو يُعمل. حيث يتربى الضمير على أصول التقليد الأبوي كما عاشته الكنيسة الأرثوذكسية على ممر العصور.

رابعاً: تكوين **علاقات روحية خالصة** مع الرب يسوع مُفعَمة بالمحبة حيث يدخل الشخص في اختبارات روحية خاصة مع الله تزيده حرارة واستنارة وتمييزاً (إفرازاً).

وليلاحظ القارئ أهمية ترتيب هذه العناصر الأساسية في البناء الروحي:

١- فالحياة النسكية تأتي في المقدمة بالنسبة للبناء الروحي، وهنا لا نقصد من كلمة "النسك" التخصص الكلي على مستوى الرهبان والمتوحدين، ولكن نقصد به **العمل الروحي بوجه عام**، كالصلاة والصوم وبقية أعمال العبادة وهذه هي بدء كل بداية.

٢- ولكي يكون العمل الروحي صحيحاً، يلزم أن تغذيه العقيدة الأرثوذكسية أولاً بأول. لذلك تأتي الدراسات العقائدية في التسليم التقليدي كسند دائم للعمل النسكي حتى تجنبه الانحرافات.

٣- ولأن الخادم هو أكثر الناس اتصالاً بالآخرين حيث تكون علاقاته وتصرفاته وسلوكه جزءاً هاماً في وظيفته الروحية، لزم أن يكون متبحراً في أصول السلوك المسيحي، يفرِّق بتلقائية روحية بين ما يليق

وما لا يليق قولاً وعملاً.

٤- ولأن الخدمة الروحية ليست مهنة تدريس بل فيض روحي، والفيض الروحي يحتاج إلى ملء مستمر، لزم أن تكون حياة الخادم ذات خبرات روحية دسمة متجددة باستمرار.

أما الغاية النهائية التي تربط معاً هذه العوامل الأربعة للبناء الروحي بالنسبة للخادم فهي أن يكون إنساناً كاملاً في المسيح.

الفصل الخامس

البناء الروحي للخادم

(٢)

أولاً: العمل النسكي

المسيحي بوجه عام هو إنسان ناسك يحب الصلاة، ويفرح بالأصوام ويبتهج بالعبادة. أما الخادم فهو إنسان يسعى نحو الكمال المسيحي، لذلك فاشتياقه الدائم هو أن يجعل من وصايا الرب يسوع قانوناً لحياته يضبط به نفسه وكل مشتهياته فكل ما يحبه المسيح يصبح غاية سعادته.

الصلاة:

الصلاة عند الخادم بوصفها عملاً نسكياً تفوق وضعها كفرض أو كواجب لتصبح غذاءً يومياً. فهي قمة الأعمال النسكية التي يفرِّغ فيها الخادم كل طاقاته، لأن من خلال الصلاة يخلق الله للخادم قلباً جديداً، وبواسطتها تستقيم روحه فيه وتستقر في الله ليصبح الله بواسطة الصلاة مصدر راحة وسلام أبدي.

الصلاة النسكية عمل روحي خلاق، يخلق على طول المدى مواهب وقدرات لم تكن من طبيعة الإنسان بل ولم تكن تخطر له على بال. والصلاة النسكية اصطلاح أرثوذكسي يقصد به الصلاة التي تؤازرها الأصوام والعبادة داخل الكنيسة.

وأعظم أعمال الصلاة النسكية التي لا يمكن أن تقارَن بأي شيء آخر، هي التي بواسطتها يستطيع الخادم الأمين المخلص أن يدخل في حياة

عشرة مع الله بواسطة الروح القدس، حيث يبلغ الخادم هنا نهاية أمله ورجائه، إذ يصبح منقاداً بروح الله، حتى أن كل ما يصنع ينجح فيه.

وبينما تكون الصلاة العادية قادرة أن تنفخ في الإنسان العادي روح الرجاء وقت الشدة، نجد أن الصلاة النسكية المؤازرة بالصوم والعبادة قادرة أن ترفع طبيعة التفكير والتدبير لدى الخادم إلى مستوى الإلهام والثقة الدائمة في الله بصورة إعجازية. وهنا يكفي أن نقول — في سر — إن الصلاة النسكية هي دائماً مصدر قوة وروحانية، فلا عجب إن وضعناها كأساس أول راسخ في البناء الروحي.

وليس المجال هنا متسعاً لشرح أصول الصلاة النسكية وقوانينها. ولكن نكتفي بأن نلفت النظر إلى ضرورة اتِّباع قانون الصلاة البسيط الذي يلتزم به العلماني الورع، وهو الصلاة ثلاث مرات في الأربع والعشرين ساعة، أي في باكر عند اليقظة من النوم مباشرة، وفي المساء قبل النوم، وفي نصف الليل (قبل الفجر) حسب ما هو مدون بالأجبية. وما زاد على ذلك فهو فضل من الله ونعمته.

والصلاة الحقيقية تكون بتوسل وقرع صدر واستعداد دائم للسجود والإنجيل مفتوح، لتمزج القراءة بالصلاة والتشجع بمواعيد الله. والمزمور تقوله من القلب وليس من الشفتين. وتفسح المجال في كل صلاة لعرض توسلات النفس. والخادم محتاج جداً أن يحوِّل أياماً برمتها للصلاة ويقضي ليالي بأكملها في الصلاة والتسبيح.

الصوم:

الصوم عمل نسكي، وبالنسبة للخادم يكون بمثابة القوة الدافعة التي

تؤمِّن له كل جهاد، فالصوم يزكي الصلاة، يضبط القلب إزاء الشهوات، يضبط النفس إزاء الانفعالات، يضبط الفكر إزاء التشتت والاضطراب، ويضبط اللسان ويقوده إلى الرزانة.

الصوم سلاح روحي فعَّال لقمع الطبيعة وتهذيب الحواس. وكل الذين أتقنوا استخدام هذا السلاح برعوا في ضبط أنفسهم فانطبع على جبينهم سمة الروحانيين.

الخادم الصوَّام يعبر على فخاخ الشيطان، من عثرات وأتعاب وضيقات، بخفة كمن له جناحان. وتؤهِّله أصوامه للدخول في أسرار الروح والتعمق فيها حتى يشرق عليه نور المسيح، فتتربى عنده حاسة المعرفة والتدبير والتمييز، التي هي رأس مال الرجل الروحاني وقمة النعم.

وليس المجال هنا لشرح أصول الصوم النسكي ودرجاته وفترات انقطاعه، ولكن يكفي أن نشير على الخادم مبدئياً أن يلتصق بقوانين الكنيسة والتمسك بها من جهة الأصوام وترتيبها، على أن لا يستثقل كثرة الصوم. فالصوم هو العملة السمائية الصعبة التي إذا حصلنا عليها استطعنا أن نقتني — بالامتناع عن الأطعمة والملذات الأرضية — قوة روحانية واضحة سماوية. وبقدر ما نصوم نسمو.

وإن كانت الصلاة جُعلت في الأساس، فالصوم بالنسبة لها قوة التسليح التي سوف تجعل البناء الروحي يحتمل كل أثقاله. والخادم محتاج إلى أصوام خاصة يفرضها عليه أبوه الروحي ليعجم[٥] عوده.

---

(٥) يعجم بمعنى يختبر صلابة عوده.

الاشتراك في العبادة:

الخادم لا يحضر الصلاة مجرد حضور، ولكنه يشترك فيها، فالخادم مفروض أنه شماس. فالشماس مسئول عن إقامة كل الصلوات في الكنيسة، يعدُّ لها ويرتبها، فهو لا يمارس الصلوات الطقسية لنفسه فحسب بل هو مسئول عن تقديمها للآخرين. فالعبادة بالنسبة للخادم هي ملء وبذل بآن واحد، يأخذها ويعطيها. فهي بذلك عمل روحي نسكي كثير المنفعة يبني روح الخادم على أساس أنه بقدر ما يأخذ يعطي، وبقدر ما يمتلئ يفيض، وبقدر ما يتعزى يعزي الآخرين.

الخادم يقف شريكاً في كل صلوات الكنيسة، مقدِّماً نفسه الخاشعة لكل الشبان الذين يخدمهم نموذجاً حياً رائعاً لكيفية العبادة والخشوع والاقتراب إلى الله.

وفي لحظات الصلاة والعبادة والخشوع والتقرب إلى الله يبلغ التعليم المسيحي، بمقتضى التقليد الأرثوذكسي، قمة أصالته وصِدْقه، حيث يكون الخادم والمخدوم، المعلم والتلميذ، كلاهما على مستوى واحد من الأخذ. البناء الروحي هنا بناء من الله، فالمعلم والتلميذ كلاهما يتقبلان بناءً سرياً، المعلم يظهر كأنه يبني تلاميذه وهو في صميم واقعه يبنيه الله. الكل هنا يُبنى من الله بمؤازرة ورُبُط سرية، كبناء واحد ينمو هيكلاً روحياً!

لذلك يُعتبر اشتراك الخادم في العبادات الطقسية بمواسمها المختلفة عملاً روحياً بالغ القيمة لنفسه وللخدمة، إذ يأتي مكمِّلاً لصلاة الخادم الخاصة فيجعل من حياة الخادم الداخلية صورة مضيئة علنية، يرى فيها تلاميذه

ومريدوه نوراً يمجدون الله بسببه.

الخادم محتاج أن يتعلم على يد مرتل الكنيسة أو شماسها كل أصول الخدمة وتسابيحها.

التجرد:

المسيح عموماً إنسان يرى أن أية خسارة تعرض له في سبيل أمانته للمسيح، تُعتبر ربحاً. أما الخادم فهو أكثر جرأة، لأنه يُقْدم على الخسارة بإرادته ليزداد ربحه، يتنازل عن راحته باختياره ويضحي بالأجر الإضافي والربح الزائد ليقضي وقته في الخدمة، يثابر بالتقوى لحساب ربح الآخرين الروحي.

العالم في نظر الخادم يفقد شكله الساحر المملوء إغراءات وغوايات، لأنه من خلال صلاته وأصوامه ومواظبته على العبادة في الكنيسة تتربى فيه عين روحانية فاحصة تميز بين الباطل والحق. لذلك فعندما يعرض عليه العالم أمجاده وغواياته، لا تجد عنده قبولاً، لأن كنـــز قلبه يكون قد استقر في الروحيات. فهو يكتفي من العالم بما يكفل له حياة الكفاف، لأن سعادة قلبه لم تعد في اقتناء الأخشاب والأقمشة الملونة والتحف ووسائل المسرات والملذات، بل في اقتناء الروح مصدر السعادة الحقيقية للنفس.

+ **المال ذلك السيد الساحر الذي سلب لب الدنيا** بأسرها وطوح بهامات الجبابرة، ليس له في قلب خادم المسيح إقامة، بل وليس سيداً على الإطلاق، هو خادم حاجات فقط يأتي ليعبر، ولا يُطلب إلا عند الضرورة. إذا ازداد رصيده كان ذلك إشارة من الروح لزيادة الخدمة،

وعندما ينضب تماماً تحل مكانه النعمة.

الخادم المبتدئ يُطالَب بالعشور وهو يعطيها باحتراس وتقتير، فإذا تحركت النعمة في أحشائه لا يستطيع أحد أن يقنعه بالكف عن العطاء فهو لا يرتاح طالما كان عنده ما يمكن أن يعطيه، ويظل يعطي ويعطي مما له حتى يستقر أخيراً، على أنه لن يستريح حتى يعطي نفسه بكل ما لها. فالمال الذي محبته أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة، يصبح للخادم الأمين باباً مفتوحاً للتقرب إلى الله وخبرة حية للدخول في أعماق الإيمان والإحساس بالتوكل على النعمة، وتدريباً متواصلاً على مقايضة الملكوت بالقروش والجنيهات.

+ **المسرات الدنيوية وأدوات الملاهي** التي أصبحت من أعواز إنسان العصر الحديث الذي يتباهى بالإنفاق عليها حتى إلى نصف مرتبه، إذ يجد فيها عزاءه الوحيد وتسليته وراحة نفسه، هي بالنسبة للخادم مصدر القلق النفسي، ومَضْيعة للوقت، وإتلافاً للصحة والمال، وإفساداً للصلاة وللمزاج الروحي عموماً، وتبديداً لطاقة التوبة أولاً بأول.

عزاء الخادم هو في صلاته، وتسليته هي في قراءاته الدسمة المنعشة، وراحة نفسه هي في اعترافه، مسرته الكبيرة هي في حصاده اليومي لثمر جهوده في الخدمة والافتقاد.

+ **الشهرة والكرامات والصيت الحسن**، التي طالما استعبدت النفوس وجعلتها تنفق الأموال والجهود وتسهر وتتذلل وترشي وتلحس التراب، هي بالنسبة للخادم إنما يكمن فيها ضلال وخطر، وانهزام قد لا يكون فيه قيام. لذلك تتحاشاها النفس الحريصة بقدر قوتها، وتتحايل للتخلُّص من

فخاخها، لأنها ترى فيها ثقلاً كفيلاً أن يغرق مركب النفس في مسيرتها الحرجة المحفوفة بالمخاطر إذا لم تنتبه إلى موازنته بالتذلل والمحقرة. لذلك فالخادم الحاذق يتدرب كل يوم كيف يتخلص من هذه الأثقال الباهظة ويلقيها من مركب حياته كبضاعة مدسوسة تالفة عديمة القيمة في مجال التقوى، وفن التجارة الروحية.

+ **الهوى والعواطف والشهوات الجنسية**، التي هي بالنسبة للعالم القوة المحركة لكل الملذات وأطماع الناس وطموحهم والمركز الطبيعي لنشاطات النفس والسر المخفي وراء كثير من الصراعات في الأسر والجماعات والشعوب والحروب، هي بالنسبة للخادم بخور يحرقه على مذبح الحب الإلهي، طاقة اشتعال نفساني لا يهبط إلى مستوى الجسد ليشغل بها أعضاءه فيبدد حرارتها في لذة حسية، بل يسمو بها إلى مستوى الروح فيحولها إلى لهيب روحي لتجديد الذهن وإضاءة طريق الحياة والخلود.

+ **الخادم الروحاني تاجر لا يكف عن المقايضة**، ليحول كل ما تصل إليه يداه من الجسديات إلى الروحيات. فالهوى الطبيعي الذي يُحسب أقوى من الطاقات العاطفية في الإنسان التي تجمع الأجساد وتوحدها، إذا ما وضع عليه الخادم الروحاني يديه وملك زمامه، حوَّله إلى طاقة محبة روحانية عالية تؤالف بين نفسه والله ثم بين نفسه وكل إنسان، كعاشق عنيد لا يرتاح إلا في جذب النفوس إلى شبكة حب المسيح التي جذبته!! «خَطَبْتُكم لرجل واحد، لأُقدِّم عذراء عفيفة للمسيح» (٢كو ١١: ٢).

ولكن لأن الهوى الجسدي مغروس غرساً طبيعياً في الأعضاء والفكر وهو لا يكف عن أن يجذب انتباه الإنسان بإلحاح إلى حاجة الطبيعة،

أصبح من المحتم على الإنسان الروحاني أن يجاهد بالعمل النسكي ليحوِّل هذا الإلحاح عن مجراه الطبيعي إلى ما هو فوق الطبيعي. لذلك فهو وإن ابتدأ جهاده مع العاطفة سلبياً، إلا أنه يبلغ بها في النهاية إلى منتهى الإيجابية حينما يسمو بها إلى مستوى المحبة المُنـــزَّهة عن اللذة الحسية والأنانية، حينما يبلغ بالنفوس إلى مستوى حضن المسيح «خطبتُكم لرجل واحد»!

+ **خادم المسيح حينما يتحرر من عبودية العواطف** التي تعمل على مستوى اللحم والدم ويدخل في حرية الروح التي تغذيها المحبة الإلهية يصبح صياداً حاذقاً للناس، ويُستأمن على شبكة المسيح التي يطرحها بمهارة على النفوس ويجذبها بمكر روحاني ليفرغها كل يوم في حضن المسيح.

ولكن الخادم الذي لم يُفرِّغ قلبه من هوى النفوس ويحرر نفسه من شهوة اللحم والدم فهو يصطاد لنفسه وليس للمسيح، ويبدد رصيده أولاً بأول.

لذلك فالعمل النسكي بالنسبة للإعلاء بالهوى الجنسي، هو رأس مال الخادم بصفته صياداً يصطاد لحساب آخر.

لذلك تظل العواطف والانفعالات الجنسية تهدد خدمة الخادم لتصبغها بالصبغة الجسدانية، بل وتجعل خدمته قريبة من الخطيئة، إلى أن يدخل في لهيب حب المسيح الذي هو وحده كفيل أن يحرق رباطاتها، فتنحل الشهوة من ذاتها ليدخل الجسد في راحة الروح وتستنير النفس بطهارة المسيح.

ولا توجد وسيلة للدخول في لهيب حب المسيح إلا بالتدرج المتواصل في العمل النسكي بالصلاة، بالصوم، بالعبادة، بالتجرد من شهوة الاقتناء، من شهوة المال، من شهوة الملاهي، من شهوة الكرامات!

****

وإذ نأتي إلى ختام العمل النسكي نعود فنكرر ضرورة الربط التدريجي بين مقوماته.

إذ لا يمكن أن يبدأ الخادم بالجهاد ضد انفعالاته الجنسية وهو لا يواظب على الصلاة.

ثم إن الصلاة بدون الصوم تتبدد قوتها.

ولكي يصبح الصوم قوة، لابد من مؤازرة النعمة.

والنعمة لا يُحصل عليها بدون المواظبة على العبادة والاشتراك في الأسرار.

والتجرد هو بمثابة خلع الأسلحة الجسدية التي يحارب بها الجسد ضد الروح.

وحينما يتجرد الجسد من أسلحته تتهيأ الروح بالضرورة لقبول أسلحة الروح القادرة أن تدكَّ حصون العدو، «**إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية، بل قادرة بالله على هدم حصون**» (٢كو ١٠: ٤).

الفصل السادس

البناء الروحي للخادم

(٣)

ثانياً: بناء عقيدة الخادم

البناء النسكي للخادم كما قدمناه في الفصل السابق يهتم بتكوين المزاج الروحي المناسب للخادم، غير أن هذا البناء لا يمكن وضع قوانين محددة عامة له يخضع لها الجميع لينمو الكل نمواً موحداً، لذلك نجد أن المزاج الروحي يتفاوت من خادم إلى خادم، من جهة:

أولاً: القدرة على التعمق في الصلاة واكتساب بصيرة التأمل،

ثانياً: الصبر والمداومة على الصوم وبلوغ درجات من الشفافية الروحية،

ثالثاً: النشاط والغيرة في العبادة داخل الكنيسة والوصول إلى درجة الالتحام بالطقس روحياً،

رابعاً: التوفر على التجرد وضبط الأهواء والشهوات والعواطف للسلوك بالروح تحت قيادة الروح القدس.

لذلك يجيء البناء العقائدي للخادم كضرورة حتمية لإرساء البناء النسكي على قواعد لاهوتية عامة ثابتة موحدة، ولتأمين النسك ضد أي انحراف أو نظرات خاصة، بحيث لا يصبح التفاوت في المزاج النسكي سبباً في الانقسامات بين الخدام، الذي يؤدي بالتالي إلى بلبلة الخدمة

وتشيُّع الشبان لهذا الخادم أو ذاك.

فإن كان البناء النسكي يهتم بنمو الفرد في علاقاته بالله، فالبناء العقائدي يهتم بأن يجعل هذا النمو الفردي داخلاً ضمن إطار نمو عام ثابت للجماعة، أي الكنيسة، على مدى العصور كلها حتى النهاية.

والآن لا يتسع لنا المجال هنا لتقديم منهاج للعقيدة المسيحية التي ينبغي أن يُبنى عليها المزاج اللاهوتي للإنسان المسيحي بوجه عام، فهذا نتركه للدراسات المدرسية والكتب اللاهوتية، وإنما نحدد أنفسنا في هذا المقال بالنسبة للسمات الأرثوذكسية الخاصة في العقيدة المسيحية التي ينبغي أن يتسم بها الخادم الأرثوذكسي في الكنيسة القبطية.

السمات الأساسية للعقيدة الأرثوذكسية

أولاً: التمسك بأصول التعاليم الآبائية الأولى

تعتبر الكنيسة الأرثوذكسية هي الوحيدة بين الكنائس – سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية – التي لا تزال تتمسك بالمعايير الآبائية للكنيسة الأولى بوصفها المعايير الصحيحة التي لها العصمة والاحترام والحق والقول الفصل.

فكما كانت الكنيسة الأولى تصلي وكما كان الآباء الأُول يصلون، هكذا ينبغي ويتحتم أن نصلي الآن بلا اختصار أو تعديل. وإن كان لابد أن يكون هناك اختصار أو تعديل لما وصل إلينا من صلوات زادت على مر الأيام، فيتحتم أن يكون التعديل وفق التقليد القديم كما هو مدوَّن في كتابات الآباء وصلواتهم. وما يقال في الصلاة يقال في الصوم والعبادة وممارسات التجرد.

فالروح الأرثوذكسية محافظة أشد المحافظة على التقليد بكافة فروعه وأنواعه، وهي تجزع أشد الجزع من الخروج على القاعدة العقائدية التي كانت متَّبعة لدى الآباء، فهي في نظرها الحق كل الحق وكل ما عداها تخريج بشري. فأي مجادلة أو نقاش أو نـــزاع في فهم أي نقطة من نقاط العقيدة مرجعه النهائي إلى أقوال الآباء الأُول، فبمجرد بروز رأي متفق عليه للقديسين أنطونيوس أو أثناسيوس أو كيرلس أو من قبلهم أو من

بعدهم من مشاهير النساك القديسين واللاهوتيين كفيل بأن ينهي على كل نـــزاع.

وإزاء هذه الدعامة الهامة في الفكر اللاهوتي الأرثوذكسي أصبح مستحيلاً لأي مجمع أو سلطة كنسية أو شخصية معاصرة أن تعدِّل أو تنسخ التقليد الآبائي السائد والمتَّبع.

لذلك أصبحت هذه السمة اللاهوتية قوة أرثوذكسية قادرة أن تصالح، وترفع الخلافات، وتجمع وجهات النظر، وتقنِّن كل منهج وتقيِّم كل سلوك!

لذلك كان من أهم المبادئ التي ينبغي أن نرسخها في ذهن الخادم وقلبه، أن يجعل معاييره الإيمانية كلها في كافة أنواع نشاطه الروحي قائمة على أساس تعاليم الرسل والآباء.

وهذا بالتالي يحتم على الخادم أن يكون شديد الشغف بدراسة أقوال الآباء، متعمقاً في فهم مبادئهم وأعمالهم ونسكياتهم.

ولكن يجدر الإشارة هنا إلى أن التمسك بالتقليد الآبائي لا يعني الجمود والتمسك بالشكليات، ولكن يعني الالتصاق بالخبرات الإيمانية الحية القوية التي عاشها الآباء ونجحوا في توريثها للكنيسة.

ثانياً: التوازن بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي:

والتوازن في الأرثوذكسية بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي يكاد يكون صفة عامة في كل نواحي الحياة العملية والفكرية وليس في العقيدة فقط. فبينما نجد في الكاثوليكية يبرز الضغط على العنصر الإنساني في الجهاد والخلاص والشفاعة وفي كل شيء حتى التجسد، نجد في البروتستانتية

العكس حيث يبرز الضغط بشدة على العنصر الإلهي في كل شيء، فالخلاص مثلاً يكاد يكون بلا أي جهاد إذ يعتمد في كلياته وجزئياته على المبادرة الإلهية والتأمين الإلهي ولا وجود لشفاعة القديسين على الإطلاق.

بينما في الأرثوذكسية نجد التوازن يبلغ منتهى الحذر والتعقل بين ما هو إنساني وما هو إلهي، فالتوافق والعمل المشترك ووحدة الحركة بين العنصر الإنساني والعنصر الإلهي ضرورة حتمية في كل شيء، في الإيمان والجهاد والنمو والتجديد والخلاص والشفاعة.

هذه هي الدعامة الثانية للأرثوذكسية التي ينبغي أن نبني عليها العقيدة والإيمان والنسك والسلوك وكل شيء. فإذا انتبه لها وجدان الإنسان الروحي وآمن بها والتـــزم بوزنها الدقيق، فإنه لن تـــزل قدماه أبداً بل ولن يزل عقله أو لسانه.

فالله معنا ما دمنا معه، موجود عند الذين يطلبونه، إن تركناه يتركنا، وإن بكَّرنا إليه نجده، إن كرَّمناه يكرمنا، وإن احتقرناه نصغر.

والمسيح واقف على الباب يقرع، إن فتحنا له يدخل، وإن نعسنا وتغافلنا عنه يعبر عنا. إن سألناه يعطينا ما نريد، وإذا لم نسأله لا يعطينا شيئاً. إن طلبناه وجدناه في الحال، وإذا لم نطلبه فهيهات أن نجده. إذا قرعنا باب رحمته يفتح دائماً، وإذا جئنا إليه من ضلالتنا فيستحيل أن يُخرجنا خارجاً. إذا جدَّدنا ذهننا بالكلمة الحية كل يوم وكل ساعة وعلى الدوام، يتغير شكلنا ليصير على شبه المسيح في القداسة والحق بفعل نعمته خفياً وبالروح القدس. إذا قبلنا سيرة القديسين وشفاعة الآباء والأنبياء وتمثَّلنا بهم ودعونا باسمهم، قبِلْنا عمل الله فيهم ونلنا نعمة الله التي كانت

معهم، لأن من قَبِلَ نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ، و«أرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء» (١كو ١٤: ٣٢). هنا التوازن بين السعي البشري والاستجابة الإلهية يكاد يكون على درجة من الدقة ينذهل لها العقل.

كذلك في النسك وفي السلوك، فبقدر الجهاد تكون النعمة، إذ يستحيل أن يحصل الإنسان على أية موهبة أو فضيلة أو حتى صفة روحية إلا إذا جاهد الإنسان وبلغ في جهاده حد الإيمان الكامل والثقة المطلقة في أنه لا شيء إلا بنعمة الله «أنا ما أنا... ولكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي» (١كو ١٥: ١٠).

ومن الناحية الأخرى نجد أن الإنسان حتى ولو بلغ في الموهبة وفي الروح إلى حد الرسولية وتغافل عن ضبط جسده والجهاد حتى الدم ضد الخطيئة وناموسها الرابض في الجسد، فهو حتماً ساقط من درجته، أو كما يقول بولس الرسول أنه يصير «مرفوضاً» «بل أُقمع جسدي وأستعبده، حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١كو ٩: ٢٧). هنا الجهاد يبدو وكأنه يؤمِّن عمل النعمة وهذا مذهل أيضاً للعقل! وحتى السلوك اليومي في كافة الأعمال الكبيرة والصغيرة الجسدية والروحية، إذا لم يكن اجتهادنا ونشاطنا وسهرنا وانتباهنا مؤازَراً بالنعمة ومتوازناً معها فالعثرات ستلاحقنا والسقوط يظل يتهددنا، إلى أن نصحح الميزان بين الجهد المبذول والاعتماد على الله!

والمفروض أن هذا التوازن بين ما هو بشري وما هو إلهي لا يقتصر على الأعمال فقط، بل ويلزم أن يتعدى ذلك إلى أعماق الوجدان نفسه. فالإحساس بالخطيئة هو الذي يؤهلنا للإحساس بالنعمة. فبقدر ما نتضع وننسحق على خطايانا بقدر ما نرتفع إلى مستوى عزاء النعمة ونسمو إلى

مستوى دم المسيح لقبول الصفح والغفران. كذلك بقدر ما يكون حزننا على سقوطنا يكون حتماً الفرح الآتي إلينا من فوق. فإذا توقف الحزن والانسحاق بسبب الخطيئة عن البلوغ بنا إلى الإحساس بالنعمة والغفران بدم المسيح، خرج هذا عن المنهج الأرثوذكسي. ومن الناحية الأخرى، إذا حاولنا أن نبلغ إلى عزاء النعمة وفرح الروح دون أن نحصر أنفسنا بالحزن والندم على ما اقترفناه من خطايا وشرور، خرج ذلك أيضاً عن المنهج الأرثوذكسي. فالموازنة الوجدانية بين محصلة الضعف البشري والقوة الإلهية فينا يلزم أن تكون الخلفية الدائمة في كل مراحل حياتنا الوجدانية. فإذا غمرتنا فرحة النصرة والجهاد وبهجة الخلاص، ينبغي أن لا يغيب عن بالنا قط الليالي السوداء التي عبرناها في غمِّ الخطيئة والندم عليها. وإذا داهمتنا الأحزان وحاصَرَنا صغر النفس مع اليأس، فينبغي أن نتذكر أن الشمس خلف السحاب والفرح الإلهي قادم إلينا بالعزاء حتماً، قادم إلينا من السماء كطائر الحمام.

ثالثاً: الموازنة بين السلطان الكنسي والحرية الفردية:

هذه السمة الثالثة من سمات العقيدة الأرثوذكسية تُعتبر من أبرز العوامل الناجحة في بناء شخصية الإنسان المسيحي بناءً سوياً.

هنا تقف العقيدة الأرثوذكسية موقفاً وسطاً متزناً بين السلطان الكنسي المطلق والمعصوم عند الكاثوليك، والسلطان الكنسي المنعدم والمذموم عند البروتستانت، كما تقف أيضاً نفس الموقف الوسط والمتزن بين حرية الفرد المتضائلة التي تكاد تكون معدومة بالنسبة للسلطان الكنسي عند الكاثوليك، وحرية الفرد الطاغية على السلطان الكنسي

عند البروتستانت.

فالسلطان الكنسي في الأرثوذكسية يستمد كيانه وصلاحيته واحترامه بل وقدرته الروحية في التنفيذ على موافقة كل فرد في الكنيسة، فالعلمانيون كأفراد وكجماعة لهم النسبة العظمى في اختيار وانتخاب وتقديم البطريرك أو الأسقف أو الكاهن أو الشماس للرسامة، فإذا لم ينطق الشعب كله بحريته واختياره كلمة "أكسيوس" أي "مستحق" للشخص المقدم لأي رتبة كهنوتية فإن رسامته تُوقَفُ في الحال حتى ولو كان المعترض واحداً فقط من ملايين، هنا توقف الرسامة إلى أن يتم التحقيق واستطلاع رأي هذا الفرد الواحد، فإن كان عنده الحجة الكافية ضد المرشح تبطل الرسامة، وإذا كانت حجته غير صحيحة يقطع هذا المعترض لأنه تسبب في بلبلة الكنيسة.

كذلك فإن أي رئيس في الكنيسة – سواء البطريرك أو الأسقف – لا يُنظر إليه في الأرثوذكسية أنه يحكم في الكنيسة بتسلط ذاتي بل يرعاها ويدبرها بنعمة الله، **الله هنا هو الحاكم الوحيد والراعي والمدبر الحكيم أي الأسقف الحقيقي للنفوس.** أما البطريرك أو الأسقف فهو راعي من قِبَل الراعي، ومُدبِّر من لدن المدبر، وناظر من تحت الناظر. فالبطريرك أو الأسقف ليست له في الحقيقة رعية خاصة له بل هو يرعى **رعية الله،** ولا هو يدبر أولاده الخصوصيين بل يدبر **أولاد الله،** ولا هو ينظر في شئون عبيد له بل ينظر في شئون **عبيد الله.**

الأسقف عموماً لا يترأس من فوق الكنيسة بل من داخلها، لا كسيد عليها بل كعضو أول فيها تكرمه باقي الأعضاء، لأنه لا يُعيَّن على الكنيسة كأنه ليس منها بل يُعيَّن فيها لأنه أصلاً واحد منها.

والأسقف حينما يحكم ويقطع بكلمة الحق باستقامة لا يحكم ولا يقطع بمقتضى مشورته الخاصة، بل بمقتضى قوانين الكنيسة ونواميسها الثابتة المستقرة، فإذا خرج عنها بطل سلطان حكمه لا في الأرض فقط بل وفي السماء، وهو في الحقيقة يحكم بسلطان المحبة التي يستمدها من إخلاص رعيته التي استأمنه الله عليها والتي أحبته واستأمنته على أرواحها. **فالسلطان الكنسي هنا مستمد من الشعب وعائد إليه. الموازنة هنا بين سلطان الكنيسة وحرية الفرد تبلغ منتهى عمقها وكرامتها التي لا حد لها.**

فالبطريرك أو الأسقف يحكم كمن له سلطان وبمنتهى الثقة واليقين لأنه يستند في حكمه على رضا الشعب وحبه. والفرد يقبل الحكم الكنسي ويخضع للتدبير كأنه من الله رأساً، لأن الذي اختاره الشعب بحريته اختاره الله أيضاً ليقدسه. فالسلطان الكنسي بالنسبة للفرد يعبِّر عن اختيار الفرد والله معاً. لذلك فالفرد يقبل السلطان الكنسي بحريته المطلقة، والكنيسة الأرثوذكسية تقوم كلها على هذه الدعامة. فالسلطان الكنسي فيها لا يعمل صحيحاً إلا في إطار الحرية الفردية.

وليس ذلك فحسب، بل إن السلطان الكنسي قام أصلاً في الكنيسة ليدعم الحرية الفردية لا ليلغيها، فكل القوانين وكل التدابير وكل التعاليم تدور حول حقيقة واحدة وهي ضمان حرية الإنسان المسيحي، ليتحرك على طريق المسيح بدون أي عائق من ذاته أو العالم أو الآخرين إنما في الحدود الإلهية المرسومة في الكنيسة بدقة، التي قام الأساقفة حراساً عليها مدى الأجيال كلها.

إذن فالإنسان المسيحي بوجه عام، والخادم بوجه خاص، ينبغي أن يبني عقيدته على أساس راسخ أنه عضو حي في الكنيسة مسئول مسئولية مباشرة عن قيام السلطان الكنسي فيها قياماً صحيحاً. ثم أنه بالتالي مسئول أمام هذا السلطان يكرمه بكل كيانه ويخضع له بكل إمكانياته، وكما أن الحرية الفردية تزكي السلطان الكنسي كذلك على السلطان الكنسي أن يزكي الحرية الفردية.

رابعاً: الموازنة بين الجهاد الزمني والسعي نحو الملكوت:

مرة أخرى تقف الكنيسة الأرثوذكسية موقفاً متوازناً بين الولاء للوطن الأرضي والواجبات الأساسية للحياة الزمنية وبين الإخلاص للوطن السمائي وواجبات الحياة الأبدية. فبينما تحاول الكاثوليكية أن توطن الملكوت على الأرض حتى جعلت من الفاتيكان مملكة زمانية مستقرة ذات حدود ومن البابا ملكاً أرضياً يتبادل السفراء مع الدول ويشتغل بالسياسة، نجد النقيض في البروتستانتية إذ أنها أجهدت ذاتها وهي تنتظر في لهفة شديدة زوال ممالك الأرض كلها دفعة واحدة وظهور ملكوت السموات بظهور المسيح حتى يختطف الناس من على الأرض ليعيشوا في السماء.

وبين هذه وتلك وقفت الأرثوذكسية على مدى الأجيال كلها تفصل بإيمانها الراسخ ما بين ملكوت قيصر وملكوت الله: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (مر ١٢: ١٧)، وسلمت ساعة مجيء المسيح لله الآب حسب طلب الرب، وانطلقت تخدم في ولاء منقطع النظير لسلاطين العالم سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين أو وثنيين. وفي نفس الوقت ظلت وبنفس القوة والخضوع والولاء تعبد وتصلي وتنطلق إلى الجبال

والقفار والصحاري تكمل واجبها الأقدس نحو ملكوت الله الآتي، فكانت الأرثوذكسية مُعلِّمة العالم كله في فنون التقشف والتجرد والنسك والصلاة. فبقدر ما كانت الأرثوذكسية – ولا زالت – صاحبة النظرة الأولى والعميقة لبطلان هيئة هذا العالم الذي يزول، كانت أكثر أقطار الدنيا تمسكاً بوطنها الأرضي وولائها له!! ومعيارها في ذلك قول الإنجيل: «لا تكنـــزوا لكم كنوزاً على الأرض... بل اكنـــزوا لكم كنوزاً في السماء» (مت ٦: ١٩ – ٢٠).

«فإن سيرتنا نحن هي في السموات، التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح» (في ٣: ٢٠).

«لأن ليس لنا هنا مدينة باقية، لكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣: ١٤).

وهذه بعينها هي نظرة الكنيسة الأولى التي يمثلها القول الذي جاء في الرسالة إلى "ديوجنيتس":

[فالمسيحيون يعيشون في أوطانهم، ولكن كنُـــزلاء في العالم، **يشتركون في كل شيء كمواطنين، غير أنهم يحتملون كل شيء كغرباء**، كل أرضٍ غريبة وطنٌ لهم، ووطنهم كأنه موطن غربة] ٥/٥.

إن السر العظيم في هذه الموازنة المدهشة بين القدرة على الولاء للوطن الأرضي والولاء للوطن السمائي هو في المستوى الرفيع الذي بلغه الآباء في التقشف والنسك، والذي من خلاله استُعلنت لهم حقائق وأفراحٍ

والقفار والصحاري تكمل واجبها الأقدس نحو ملكوت الله الآتي، فكانت الأرثوذكسية مُعلِّمة العالم كله في فنون التقشف والتجرد والنسك والصلاة. فبقدر ما كانت الأرثوذكسية – ولا زالت – صاحبة النظرة الأولى والعميقة لبطلان هيئة هذا العالم الذي يزول، كانت أكثر أقطار الدنيا تمسكاً بوطنها الأرضي وولائها له!! ومعيارها في ذلك قول الإنجيل: «لا تكنـــزوا لكم كنوزاً على الأرض... بل اكنـــزوا لكم كنوزاً في السماء» (مت ٦: ١٩ – ٢٠).

«فإن سيرتنا نحن هي في السموات، التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح» (في ٣: ٢٠).

«لأن ليس لنا هنا مدينة باقية، لكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣: ١٤).

وهذه بعينها هي نظرة الكنيسة الأولى التي يمثلها القول الذي جاء في الرسالة إلى "ديوجنيتس":

[فالمسيحيون يعيشون في أوطانهم، ولكن كنُـــزلاء في العالم، **يشتركون في كل شيء كمواطنين، غير أنهم يحتملون كل شيء كغرباء**، كل أرضٍ غريبة وطنٌ لهم، ووطنهم كأنه موطن غربة] ٥/٥.

إن السر العظيم في هذه الموازنة المدهشة بين القدرة على الولاء للوطن الأرضي والولاء للوطن السمائي هو في المستوى الرفيع الذي بلغه الآباء في التقشف والنسك، والذي من خلاله استُعلنت لهم حقائق وأفراحٍ الملكوت الأبدي، فعاشوه وهم على الأرض، واستمتعوا به استمتاعاً يكاد يكون كاملاً وهم يؤدون واجباتهم اليومية بفرح وبلا ملل، فرسموا

أمام الكنيسة طريق الخلود في صميم مهام الدنيا وواجباتها، وعاشوا الأخرويات والمستقبلات وهم يجاهدون حاضرهم، فعبروا مضنوكين من ثقل الأتعاب الجسدية وعلى وجوههم ابتسامة النصرة وفرحة الدهر الآتي.

***

ولعلنا في هذا العرض السريع والمختصر لسمات العقيدة الأرثوذكسية نكون قد ألقينا شعاعاً نعتقد بالحق أنه ضئيل جداً، ولكنه ربما يكاد يكون هادياً للقادة والخدام، ليكتشفوا على نوره الطريق إلى بناء الخادم بناء عقيدياً سليماً متوازناً يتمشى مع روح الأرثوذكسية وعمقها البديع.

الفصل السابع

البناء الروحي للخادم

(٤)

ثالثاً: البناء الأخلاقي للخادم

نحن هنا بصدد الأخلاق، لذلك يتحتم علينا أولاً أن نسأل: ما هو موضوع الأخلاق والسلوك من المسيحية أو من المسيح؟ هل الأخلاق هدف التدين؟ وهل السلوك غاية رسالة المسيح؟

الجواب: كلا...

فهدف التديُّن هو الحياة الأبدية، وغاية رسالة المسيح هي المسيح نفسه، نعيش معه وله، والمسيح بالتالي هو الحياة وهو الملكوت الآتي «أنا هو الطريق... والحياة» (يو ١٤: ٦).

إذن، ما هو مركز الأخلاق أو ما هي قيمة السلوك لدى المسيحي؟

الأخلاق وظيفة الروح، كما أن النظر وظيفة العين. فالعين إذا كانت صحيحة وقائمة في النور تنظر نظراً صحيحاً، كذلك الروح تماماً فإذا كانت الروح صحيحة وتعيش في المسيح فإنها تفرز أخلاقاً جيدة.

الأخلاق الطيبة هنا نتيجة حتمية لحياة مسيحية صحيحة. لذلك فالإنسان المسيحي يستحيل عليه أن يبحث عن الأخلاق الجيدة أو يسعى وراءها خُلواً من المسيح، المسيح هو سر الأخلاق بالنسبة للمسيحي وهو منبع السلوك.

لذلك فالأخلاق في عرف المسيحية ليست هي مجرد الصدق والأمانة والشرف والصراحة والإخلاص والدقة في العمل والسلوك، بل هي شيء يفوق هذا كله ويتجاوزه، هي المسيح نفسه، هي أخلاقه وسلوكه.

الصدق والأمانة في العرف التربوي الإنساني أمر يتعلق بهذه الحياة الأرضية ليضمن حسنها وبهجتها ويوفر النجاح في تدبير حاجاتها ودوام سعادتها؛ أما الصدق والأمانة في العرف المسيحي فهو أمر يتعلق بالحياة الأبدية أساساً، فالأخلاق في المسيحية لا تعمل لحسن الإقامة في الأرض ودوامها بل تعمل لضمان عبورها وتجاوزها.

الإنسان الدنيوي، في أفضل مراتبه، يصدق في القول والعمل احتراماً لإنسانيته وتكريماً للعلائق التي تربطه بالناس أو لتزداد شهرته أو تنمو تجارته؛ أما الإنسان المسيحي فهو صادق لأنه لا يريد شيئاً على الأرض وأمين في القليل لأنه يطلب شيئاً أكثر، يطلب السماء نفسها. المسيحي يخلص في العمل **إخلاصاً يفوق حاجة العمل، بل يتجاوز قيمة العمل لأن إخلاصه لا ينبع من طموحه في نجاح عمله، بل ينبع من تجاوزه له، فهو يعمل لحساب حياة أفضل من العمل حياة أسمى من الأكل أو الشرب أو المال أو الصيت الحسن «وكل ما فعلتم فاعملوا من القلب كما للرب ليس للناس»** (كو ٣: ٢٣). لذلك فأمانة المسيحي وصدقه وإخلاصه لا يمكن أن يعوقها خذلان بشري أو خسارة أرضية، ولا يمكن أن يوقفها تهديد بالموت أو حرمان من سعادة دنيوية. إنها أخلاق ليست من هذا الدهر، لذلك فهي تفوق في قدرتها وقيمتها أعلى مستوى للأخلاق الإنسانية اللازمة لهذا الدهر.

وهكذا نرى أن الأخلاق المسيحية وظيفة روحية للنفس البشرية

تؤمِّن عبورها من حياة حسب الجسد لحياة حسب الروح. وهنا نجد أنفسنا فجأة أمام صميم رسالة الخادم، فالخادم لأنه يعمل طول حياته للانتقال بنفسه وبالآخرين من حياة حسب الجسد لحياة حسب الروح، لذلك أصبحت الأخلاق بمفهومها المسيحي معياراً حساساً للحكم عليه وعلى خدمته في كل ما يقول ويعمل، سواء في مجال الخدمة أو مجال حياته في أسرته أو مجال عمله في مهنته!

ولكي نحدد معالم الأخلاق المسيحية سواء في طبيعتها أو وظيفتها، يلزمنا في كل لحظة أن نفرق بينها وبين الأخلاق الإنسانية في أعلى مستوى لها.

فبينما تنبع طبيعة الأخلاق الإنسانية من **التوازن والانسجام** القائم بين مطالب الجسد وفلسفة الفكر، بين الواقع الزمني وتوقعات المستقبل النسبية، بين الشعور واللاشعور، بين العاطفة والمعقول، بين أعواز الإنسان وحاجة الآخرين، نجد أن طبيعة الأخلاق المسيحية تنبع من **التمايز والتباين الشديد** القائم بين الحياة الحاضرة والحياة المستقبلة أو القائم بصورة حرب دائمة لا هوادة فيها بين مطالب الجسد ومطالب الروح، والقائم أيضاً بصورة عكسية تماماً بين منفعة الإنسان في الدنيا ومنفعته في الآخرة، بين إرضاء الناس وإرضاء الله.

وهكذا نجد أنه بينما الأخلاق الإنسانية هي **حصيلة توازن نسبي** بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والواقع الزمني وبين الإنسان والآخرين، نجد الأخلاق المسيحية تبدأ **كحصيلة لمضادة كبرى** بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان والواقع الزمني وبين الإنسان والآخرين، وتنتهي بقيام

انسجام مطلق فوق النفس وفوق الزمن وفوق الآخرين «إن كان أحدٌ يأتي إليَّ و(هو) لا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخَوَاته حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو ١٤: ٢٦).

والعجيب في الأخلاق المسيحية أنها بالرغم من كونها تبدأ بمضادة كبرى للإنسان مع نفسه ومع الزمن ومع الآخرين، إلا أنها تنتهي بانسجام شديد ومطلق مع النفس والزمن والآخرين وذلك بمجرد دخولها مجال الحياة الأبدية والله، لأنها تتخلص مرة واحدة من كل أنانية ومن كل طموح دنيوي ومن كل تعالٍ وكبرياء؛ الأمور التي تلوث القيمة الأخلاقية، أياً كانت، والتي يستحيل على الأخلاق الإنسانية الطبيعية أن تتخلص منها بالجهد الذاتي بأي حال من الأحوال.

فالإنسان المسيحي حينما يتمسك بالصدق والأمانة والإخلاص تمسكاً شديداً لا هوادة فيه، فهو إنما **يقاوم أنانية نفسه، ويصارع حاجة وطموح الزمن، ويتحدى مستواه إزاء الآخرين،** لكي يرتفع إلى ما فوق نفسه وما فوق الزمن وما فوق الآخرين، أي يصل إلى الله وإلى الانسجام المطلق مع الحياة الأبدية، وحينئذ يعود إلى نفسه بغير حب ذات أو أنانية، ويعود إلى الزمن بغير أطماع وطموح، ويعود إلى الآخرين بغير منافسة أو تعالي. وهنا تبدو الأخلاق المسيحية ليست وظيفة روحية للنفس وحسب ولكن طريقاً سماوياً عَبْر الأرض، يضمن للإنسان نجاحه في العبور على كل حال وفي أشد الظروف تعسراً.

وهنا يهمنا جداً أن نُظهر الفوارق الخطيرة بين الأخلاق الإنسانية الطبيعية في صورتها الفاضلة المنسجمة مع ذات الإنسان ومع حاجة الزمن ومع مزاج الآخرين، وبين الأخلاق المسيحية في صورتها المضادة للذات

والمضادة للزمن والمتجاوزة لمزاج الآخرين. فالأخلاق الإنسانية الطبيعية وإن كانت تبدو في وضعها الفاضل بصورة جمالية تغذي مبدأ المنفعة العامة للإنسان على الأرض، إلا أنها تعود وتُفرِّغ الروح الإنسانية من كل قيمة روحية ومن كل تعطُّش نحو الله والحياة الأبدية، بل إنها تجعل نفس الحياة على الأرض غير جَدِّية، فهي مجرد أخلاق للمنفعة أو للزينة، كتمثيلية لا تعيش بعد إسدال الستار إلا في خيال الناس.

في حين أن الأخلاق المسيحية بصرامتها تجاه الذات وتجاه الزمن وتجاه الآخرين ترفع من قيمة البيئة الإنسانية ونفسية الإنسان عموماً لتجعلها فوق مستوى المنفعة واللذة والتراب، **تجعل الصدق أهم من العمل، والأمانة أهم من النجاح، والإخلاص أسمى من الصداقة، والعدل أعلى من المصلحة العامة.** هنا الأخلاق المسيحية تبدو كضرورة بالغة القيمة بالنسبة للإنسان، فالعلم والأدب والفن والسياسة والتربية وكل نشاطات الإنسان العقلية والنفسية والجسدية تبدو فارغة ومضلِّلة ومُتلفة للروح الإنسانية بدون العنصر المسيحي للأخلاق، في حين أن العلوم والفنون والآداب والسياسة وغيرها إذا التحم بها العنصر الأخلاقي بوضعه المسيحي المتسامي فوق الأنانية واللذة والمنفعة العامة، فإنه يجعل منها مجالات رائعة للبذل والحب وبالتالي يستخدمها للانتقال بالبشرية من أطوارها الانطوائية المادية المتخلفة إلى المستويات الروحية الراقية التي تصبو إليها.

وبعد هذه المقدمة البسيطة لمفهوم الأخلاق في المسيحية، يلزمنا أن نسأل:

هل الأخلاق في المسيحية قانون؟ أو بمعنى آخر هل هي التزام؟

هنا يتحتم علينا أن نفهم أن المسيحية **طبيعة جديدة للإنسان** فوق مستواه الأرضي ولكنها تنسجم أصلاً مع خلقته الأولى، لأن الإنسان خُلق أصلاً ليعيش مع الله وليحيا معه إلى الأبد. والإنسان لما سقط وحُرِم من الحياة مع الله وقع، وفي الحال، تحت القصاص بصيغة أوامر محددة قاطعة ملزمة، لتهذب طبيعته الحيوانية وتمنعه من التمادي في السقوط والبعد عن الله: لا يكن لك آلهة أخرى غيري – تحب الرب إلهك من كل قلبك – تحب قريبك كنفسك – أكرم أباك وأمك – لا تقتل – لا تسرق – لا تزن – لا تحلف باسم الرب باطلاً – لا تشهد شهادة زور – لا تشته امرأة قريبك – لا تشته مقتنى غيرك.

ولكن المسيح جاء ووهبنا ميلاداً جديداً لطبيعة جديدة روحانية فائقة، وأعطانا فيها الحياة الأبدية التي كانت لنا عند الله والتي كنا قد فقدناها، لقد رفع عنا القصاص بأكمله وبالتالي ألغى الناموس كله «قد كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان، ولكن بعدما جاء الإيمان، لسنا بعدُ تحت مؤدب» (غل ٣: ٢٤ - ٢٥). ولأن الأوامر والوصايا الأخلاقية (الناموس) في العهد القديم روحانية بطبيعتها، لذلك فإنها أصبحت غير منسجمة مع طبيعتنا الساقطة، ولهذا أصبحت بالتالي كقانون تأديبي يعاقب كل من يتعداه بلا رحمة. ولكن الآن ونحن نعيش مع الله في المسيح يسوع بطبيعة حرة منسجمة مع الروح، في جدة الحياة، في قيامة حقيقية في ملكوت سري داخل القلب، لذلك لسنا بعد تحت قانون أخلاقي مؤدب؛ إننا نعيش مع الله في المسيح بأخلاق المسيح، لنا فكر المسيح وطاعته وحبه وروحه، فالطبيعة الجديدة هي التي أفرزت الأخلاق المسيحية!

الأخلاق المسيحية إذن ليست هي قانوناً مُسلطاً علينا، بل وصايا محببة تنسجم مع روحنا، مع تطلعاتنا إلى السماء، مع طبيعتنا الجديدة. محبتنا للمسيح واتحادنا به وشركتنا في الحياة الأبدية جردت القانون الأخلاقي الأول من سلطانه وسطوته وإلزامه وعقوبته بل ومن طبيعته. فالناموس الذي وُضع أصلاً ليهذب الطبيعة الحيوانية لم يعد صالحاً لتهذيب الروح: «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يو ٣: ٦)، محبتنا للمسيح وشركتنا في النور جعلتنا نتجاوز الأمر بعدم القتل إلى عدم البغضة أصلاً بل ونتجاوز بغضة الأعداء إلى محبتهم. تغيُّر الناموس هنا مرتبط بتغير الطبيعة، لقد ذاب القانون الأخلاقي تحت وطأة المحبة الملتهبة للمسيح في الوضع الجديد. الأخلاق المسيحية لا تقع الآن تحت بنود قانون يجاهد الإنسان ليعيش بها، وإنما هي صفات ملازمة لطبيعة الإنسان الجديد لا يستطيع أن يحيا بدونها.

محبة المسيح جعلت الصدق طبيعة جديدة للإنسان،

محبة المسيح جعلت الأمانة وظيفة حيوية للروح لا يمكنها أن تعيش بدونها،

محبة المسيح جعلت الإخلاص والوضوح والصراحة في كل شيء صفة ملازمة للإنسان قولاً وفكراً وعملاً، يموت إن هو خالفها أو تخلى عنها.

إذن، فالأخلاق المسيحية لم يعد لها روح القانون الأول وصرامته بل هي طبيعة الإنسان الجديد، هي مسرته، هي حبه الذي يمارسه في كل المجالات، هي سر المسيح الجديد العامل والفعال في قلب الإنسان المولود من الروح، هي الأجنحة النورانية التي وُهبت من الروح القدس جديداً

للنفس البشرية لتلبسها وتعبر بها من الأرض إلى السماء.

إذن، كيف تُبنى الأخلاق والسلوك في المسيحية، هل بالقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات؟

مستحيل طبعاً، لأن هذه الوسائل لا تبني إلا الأخلاق الطبيعية التي تتناسب مع الطبيعة الإنسانية فقط، ولا تحطُّ في النفس إلا انطباعات من السلوك تتلاءم مع قدرات النفس وحسب. فالقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات تشكل الطبيعة وتهذبها وتدرب السلوك وتحدده، ولكنها يستحيل أن ترفع الطبيعة فوق ذاتها أو تخلق أنواعاً روحية من السلوك تفوق الطبيعة الحيوانية.

صاحب السيرك يلجأ للقوانين والتداريب والجوائز والعقوبات ليرفع من مهارات الحيوانات إلى أقصى ما جُبلت عليه طبيعتها من طاقات وحركات وذكاء، ولكن يستحيل على صاحب السيرك أن يخلق في الحيوانات بالتداريب طبائع فوق طبيعتها كأن تتكلم مثلاً أو تضحك.

الأخلاق المسيحية المطلوب للنفس المسيحية أن تلبسها ليست أصلاً من طبيعة الإنسان الحيوانية، إنها صفات روحانية، لذلك يستحيل أن تنمو طبيعياً أو تترقى بالتدريب. إنها ليست مهارات بل مواهب: الصدق في المسيحية موهبة، الأمانة في الفكر والقول والعمل موهبة، والإخلاص والوضوح والصراحة موهبة، المحبة الطاهرة التي بلا رياء موهبة، هذه المواهب تُعطَى بالروح وتنمو بالروح وترسخ في النفس البشرية بالروح.

ولا سبيل إطلاقاً أن تنمو الأخلاق المسيحية وترسخ في النفس إلا بالعشرة القلبية مع المسيح بالصلاة الدائمة والحب، حينما نصمم أن نحيا بالروح ونُسلِّم أنفسنا وعقولنا لكي ننقاد بالروح، حينئذ يأخذ الروح ما

للمسيح ويعطينا.

الخادم يصير صادقاً صدقاً مسيحياً حينما يذوق صدق المسيح فيسري في عروقه ويختم قلبه وفكره.

الخادم يصير أميناً أمانة مسيحية حينما تُستعلن له أمانة المسيح وتنسكب في أحشائه وتختم كل أعضائه.

الخادم يصير مخلصاً وفياً واضحاً صريحاً طاهراً حينما يستقر المسيح في قلبه ويملك ويختم على عواطفه ووجدانه.

الفصل الثامن

البناء الروحي للخادم

(٥)

رابعاً: الاختبار الروحي في حياة الخادم

إن كل ما قدمناه عن بناء الخادم في كافة المجالات النفسية والروحية، يمهد للاختبار الروحي الصحيح، والاختبار الروحي في الحياة المسيحية كما اختبرته الكنيسة الأولى وكما عاشه الآباء الروحيون هو قوة الحياة الجديدة. ونحن نقدم هنا المفاعيل أو الانطباعات التي تلازم هذا الاختبار:

١- شعور روحي جارف بحضور الله.

٢- انفتاح القلب بفرح لذيذ لكلمة الإنجيل تصل إلى حد الجوع والدموع.

٣- تصديق لوعد كلمة الله بيقين شديد يُبرز عمل الرجاء إلى أقصى قوته.

٤- الإحساس الواقعي بشخص المسيح الحي، كرفيق حلو، فتصبح محبته كالنار في القلب.

٥- تفجُّر الحاسة الإيمانية بنشاط ذهني وجسدي وروحي تجعل الإنسان كارزاً بلا أي مؤهلات سابقة، بل وعلى مستوى الاستعداد للشهادة والبذل حتى الموت.

٦- التيقُّن من سُكنى الروح القدس في القلب، والتيقظ لأهمية قيادته والاعتماد عليه.

٧- انتباه حاسة إدانة النفس وكشف خطاياها أولاً بأول بتدقيق لا هوادة فيه.

ويؤسفنا أن هذه المفاعيل أو الانطباعات الروحية يستحيل أن يوضع لها منهج بالكلام، فهي مفاعيل سرية لاختبار روحي عميق لا تستطيع الكلمات أن تُدخل الإنسان إليه. ومهما دققنا في الوصف فهو لا يمكن أن يحيط به أو يصل إليه.

وربما تستطيع الكلمات أن تصف هذه المفاعيل وتُشوق القلب إلى قيمة هذا الاختبار الروحي وانطباعاته، فتقنع الإنسان بضرورتها. ولكن يظل السؤال: كيف يذوق الإنسان الاختبار الروحي؟ فهذا عمل من اختصاص الإنسان مع الروح القدس.

مواصفات للاختبار الروحي

المواصفة الأولى

مدى التحرر الذي ناله الإنسان إزاء العالم الحاضر:

الذي نُحذر منه القارئ لئلا يقع فيه هو أن الاختبار بانطباعاته السابقة ليس وليد عواطف ولا هو يأتي نتيجة تداريب، ولكنه **"طريق" و"حق" و"حياة"**.

طريق يستحيل أن تطأه أقدامنا إذا كانت سريعة المشي في طريق العالم الواسعة.

وحق لا يمكن أن ينكشف لروحنا إذا كانت روحنا قد ارتبطت بأباطيل العالم.

وحياة لا يشرق نور مجدها علينا إذا كنا قد اكتفينا بحياة الدنيا وأمجادها.

وواضح من هذا أن الاختبار الروحي يتطلب جهداً سلبياً ضد العالم. إذن، فالدخول إلى الاختبار الروحي يتوقف على مدى تحرر الإنسان داخلياً من الارتباطات التي تشده إلى الأرض. وتحرُّر الإنسان هنا يتوقف على مدى جهاد الإنسان مع روح الله كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة ضد طرق هذا العالم الملتوية وأباطيله وأمجاده الكاذبة.

يقول القديس مقاريوس من جهة هذا الاختبار الروحي كلمات

جديرة بالانتباه:

"النفوس التي يكون حبها لله متأججاً لا ينطفئ تكون مستحقة للحياة الأبدية، لذلك تصبح أهلاً أن تُعتق من الشهوات، وتنال بصورة كاملة **شركة الوحدة السرية غير الموصوفة مع الروح القدس في ملء النعمة** (الاختبار الروحي). أما النفوس المدلَّلة فبسبب كونها تعيش في الجسد ولا تطلب القداسة بمثابرة وصبر، تجدها لا ترجو أن تشترك مع روح العزاء (الباراكليت)، ولا ترجو البصيرة أو الملء أو الكمال، ولذلك فهي لا تنال الانعتاق من الشهوات، ومثلها النفوس التي بعد أن تكون استحقت عمل النعمة الإلهية تنخدع للشر وتستسلم إلى الاستهتار والتهاون".

أي أن الاختبار الروحي يبدأ بحب نحو الله متأجج يدوم بالمثابرة، هذا الحب المتأجج كفيل أن يعتق الإنسان من شهواته. وحينئذ يتأهل للدخول إلى الاختبار الروحي الذي يسميه القديس مقاريوس "**شركة الوحدة السرية غير الموصوفة مع الروح القدس في ملء النعمة**".

المواصفة الثانية

مدى ارتباط الإنسان بالمسيح:

المسيح يطلب بل يطالب كل من يتبعه، أو بالحري كل من يسعى نحو الخلاص أن يحدد موقفه منه أولاً وقبل كل شيء!

+ «أتحبني؟ أتحبني؟ أتحبني؟» (يو ٢١: ١٥ - ١٧).
+ «بعْ كلَّ مَا لَكَ... وتعالَ اتبعني» (لو ١٨: ٢٢).

+ «دَعِ الموتى يدفنون موتاهم، وأما أنت فاذهب وناد بملكوت الله» (لو ٩: ٦٠).

+ «من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني» (مت ١٠: ٣٧).

+ «إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته، حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو ١٤: ٢٦).

+ «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» (يو ١٤: ١٥).

+ «أما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟» (مر ١٤: ٣٧).

+ «ثم قال للتلميذ: هوذا أُمُّك» (يو ١٩: ٢٧).

إذن، فالمسيح يطالبنا بموقف واضح محدد من جهة علاقتنا به حتى ندخل معه وبواسطته إلى حقيقة وقوة الخلاص الذي نسعى إليه. ومن كلام المسيح يبدو لنا أنه لا يرضى ولا يقبل إلا أن ترتفع علاقتنا به لتصبح أعلى من كل علاقة مع أي إنسان آخر مهما كان هذا الإنسان، وأهم من كل شيء آخر في الدنيا مهما كان هذا الشيء حتى ولو كان رزقنا بل حياتنا «لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟» (مت ١٦: ٢٦).

هنا، في الواقع، **دخول إيجابي للتحرر** الذي حاولنا أن نبلغه في "الوصفة الأولى" عن طريق سلبي، لأنه بمجرد أن نجعل المسيح في حياتنا أهم من كل إنسان وأهم من كل شيء حتى الحياة نفسها، حينئذ ينكشف لنا **الحق** تلقائياً أو كجزاء ومكافأة حاضرة وسريعة «والحق **يحرركم**».

في الوصفة الأولى نجاهد مع الله ضد الدنيا وشهواتها وضد الجسد وشهواته لنتحرر من نيرهما، وفي الوصفة الثانية نرفع المسيح في حياتنا وفي ضمائرنا فوق الدنيا كلها وفوق النفس فندخل إلى الحق مباشرة وتحل فينا قوته فنتحرر تلقائياً من كل ما هو باطل.

ولكن أي الوصفتين أسبق؟ أو لماذا جاء الجهاد السلبي قبل الجهاد الإيجابي؟ هذه ضرورة في الكتابة، لأن الاثنين ينبغي أن يعملا معاً وبالتالي يلزم أن يبدآ معاً.

ولكن الذي ننبه ذهن القارئ إليه أن تحديد موقفنا من المسيح هو بحد ذاته قوة ابتدائية دافعة تجعلنا ندخل إلى الحق من أسرع وأقصر طريق. ومعرفة الحق الذي في المسيح ليست نظريات وعظية بل قوة فائقة، قوة محررة يفوق سلطانها قوة الفعل والمنطق والإرادة والطبع والعادة! فقوة الحق الذي نناله بواسطة علاقتنا الحبِّية مع المسيح هي **قوة حياة** بل هي ملء الحياة الأبدية التي تتحدى الموت.

إن قوة الشهداء الذين استشهدوا على اسم المسيح استمدوها من معرفة الحق الذي في المسيح الذي أحبوه وعاشروه، ولم يكن يدري مُعذِّبوهم أن الحق الذي فيهم هو هو الحياة الأبدية التي حررتهم من كل ارتباطاتهم بالدنيا ومن الخوف من الموت، فكان دمهم شهادة لصدق اختبارهم الروحي.

وهكذا نرى أن علاقتنا بالمسيح تحدد مدى صلاحيتنا للدخول في الاختبار الروحي.

مدى استعداد الإنسان لمقابلة الله؟

الاختبار الروحي هو دخول في الحضرة الإلهية. فما هو استعدادنا للمواجهة؟

قد يكون هناك اشتياق شديد للوجود مع الله وتوق إلى الحديث معه، بل وقد يكون هناك سؤال جريء لرؤياه، ولكن ما هو مدى استعدادنا الداخلي لهذا الوجود أو الحديث أو الرؤيا؟

ثلاث عوامل أساسية تمهد للمواجهة:

١ – بساطة القلب أو نقاوته:

وهنا لا ندخل في مفهوم البساطة والنقاوة النسكية، ولكن في الاختبار الروحي بساطة القلب تعني تصديق ما لا يُصدَّق، والإيمان بالمستحيل فكراً وعملاً، والإيقان بأمور لا ترى.

ومن هذا يتبين أن العقل المحاجج والفكر المتمسك بالمنطق والإرادة الجبانة معطلات كبيرة في طريق الاختبار الروحي.

٢ – سرعة القدرة على تخطّي الحوادث وتجاوز المظاهر:

فالله يتواجد في كل الظروف وفي كل المواقف وفي كل مراحل الحياة فإذا لم يكن لدينا استعداد أساسي لمواجهة الله في الحزن والألم والمرض والضيقة والإخفاق بنفس الانفتاح وبنفس السرعة التي نراه فيها في الفرح والسلام والصحة والمسرة والنجاح، فإن دخولنا في الاختبار الروحي يتخلخل ويضعف حتى يتلاشى. فالوجود مع الله لا ينبغي أن يوقفه أية

رسالة أو حديث آخر مهما كان هاماً أو خطيراً، ورؤية الله لا ينبغي أن تمسحها من ذاكرتنا أو من قلبنا أية رؤية أخرى مهما كانت جميلة أو مسلية أو أخاذة.

٣- الاستعداد لمقابلة الله في الآخرين:

«مَنْ يقبلكم يقبلني» (مت ١٠: ٤٠)، «الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم» (مت ٢٥: ٤٠).

من الشروط الأساسية التي لا يمكن تجاهلها في الاختبار الروحي أن يكون لدينا منذ البدء الاستعداد القلبي لرؤية الله في الأخ المتألم أو الأخت المتألمة، في الطفل اليتيم الجائع، في الأرملة المسكينة المحتاجة، في مريض المستشفى، في طريح الأرصفة على الشوارع، في الغريب، في العاجز، في المضطهد، في المظلوم، في كل إنسان بلا تمييز.

هكذا شاء المسيح الذي هو صورة الله أن يجعل من هؤلاء البائسين صورة له. حتى تصبح مقابلة المسيح وبالتالي مقابلة الله عَبْر خدمة هذه الوجوه الحزينة الجائعة المظلومة والمريضة مقدمة سهلة للدخول في أعماق الخبرة الروحية. فالأعضاء الضعيفة والمتألمة في جسم المسيح المصلوب للعالم ينبغي أن تبرز في مقدمة اهتمامنا إن كنا نريد أن ننال شرف رؤيا المسيح الممجد.

«يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاناً فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر، فبي فعلتم» (متى ٢٥: ٣٧ -

٤٠). هنا يقدم لنا المسيح الاختبار الروحي في أبسط وأعمق صورة.

المواصفة الرابعة

مدى استعداد الإنسان للشهادة للحق:

معروف أن الدخول في الاختبار الروحي معناه الدخول في "الحق" الذي هو ملء وقوة الحياة الجديدة التي وهبها لنا المسيح.

كما أن ميلاد الإنسان في هذا العالم يضع على عاتقه واجبات. ومن أهم هذه الواجبات وأولها هو الدفاع عن هذه الحياة ضد كل من يريد أن ينـــزعها منه. كذلك بالنسبة للإنسان الذي يريد أن يدخل مجال "الحق الإلهي" والحياة الأبدية فإن أول واجب يوضع عليه هو أن يكون على استعداد للشهادة للحق، **أولاً** شهادة ضد الباطل أو ضد كل ما يريد أن ينـــزع عنه هذا "الحق"، **ثانياً** شهادة لكل من يريد أن يعرف الحق الذي فيه أو من كان على استعداد لقبوله.

لذلك فالاختبار الروحي يتعذر حدوثه بالنسبة لإنسان يمالئ الباطل ويخشاه. كذلك فإن الاختبار الروحي يتعثر جداً بالنسبة لإنسان يرفض أن يكون على مستوى الشهادة الكارزة «**نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا**» (أع ٤: ٢٠). هنا، الشهادة ليست إلزامية لأنها واجبة أو ضرورية فقط أو لأنها عمل فاضل أو فضيلة أو لإرضاء الله أو الضمير، ولكن لأن الشهادة هي شهادة "**للحق**"، فهنا في الواقع استحالة أن يمتنع الإنسان عن الشهادة للحق لو أنه في "الحق" أو "الحق فيه".

لذلك أصبح استعداد الإنسان للشهادة "للحق" من كل القلب وبكل الفكر والإرادة والقوة مواصفة أساسية للدخول في الاختبار الروحي.

الخادم إذا دخل الاختبار الروحي بحسب مواصفاته السابقة يصبح موصلاً جيداً لله ولكلمة الإنجيل وشاهداً لا يُجارَى للحق الإلهي.

الكنيسة الأولى كانت مزدحمة بشهود أقوياء أفحموا الفلاسفة والعلماء وأذهلوا القضاة وأرعبوا الحكام والولاة بمنطقهم وحجتهم وعلمهم وصلابة إرادتهم مع بساطة الحملان ووداعتهم، إنها كانت مفاعيل الخبرة الروحية للحياة مع المسيح.